حروف المباني
وأثرها في بلاغة المعنى القرآني

إعداد

أ.د السّيد محمد سلام

أستاذ البلاغة والنقد

وعميد كلية اللغة العربية بالمنوفية

١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٣م

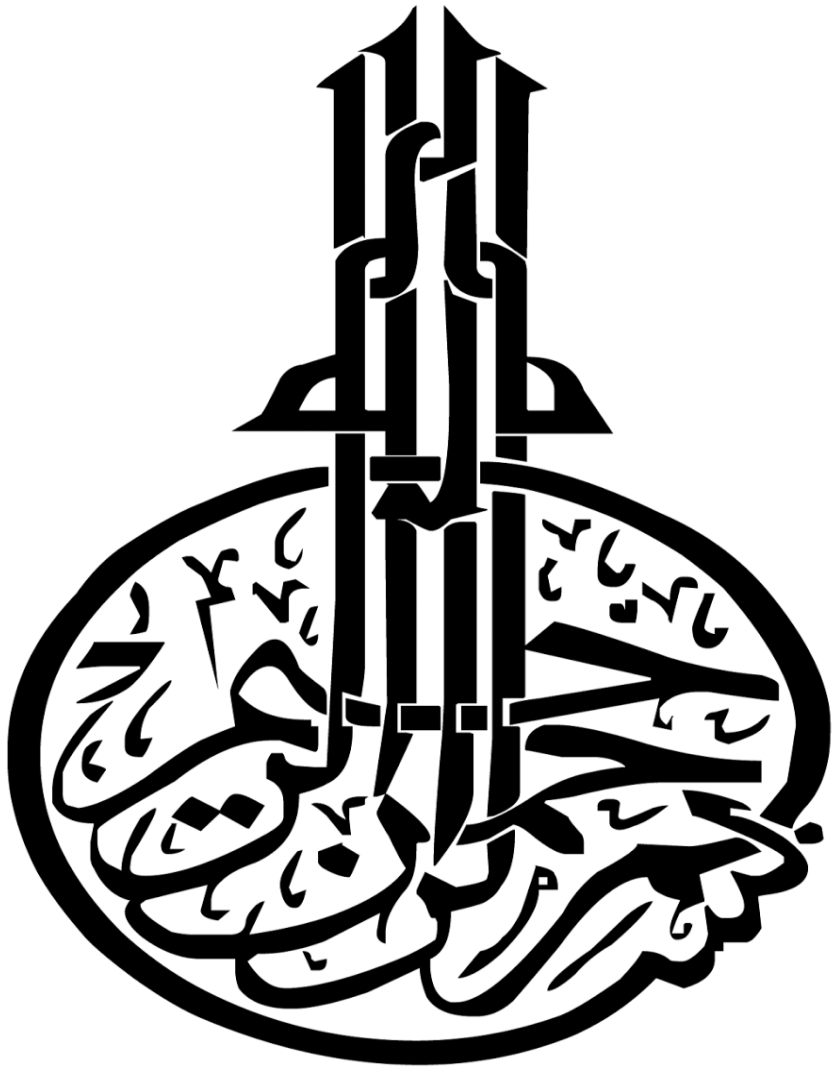

حروف المباني وأثرها في بلاغة المعنى القرآني

السيد محمد السيد سلام
قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية بالمنوفية، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الالكتروني:
elsayedsallam.lan@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

يجلي هذا البحث الحديث عن أثر حرف البناء-مذكورا أو محذوفا-في بلاغة المعنىٰ القرآني؛ وذلك لأن ذكر الحرف في مكانه بليغ باعتبار مقامه، وحذفه بليغ كذلك باعتبار مقامه وسياقه، فجمال دلالته يتجلىٰ في ذكره، كما يتجلىٰ في حذفه باعتبار مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال، وارتباط جمال الدلالة بالسياق كله ... فهنا سيكون الحديث عن حرف المبنىٰ يذكر في كلمة ويحذف من أخرىٰ، في بناء واحد، وسياق متقارب، أو متباعد في نص من سورتين مختلفتين، والتي زيد فيها الحرف لها دلالة تنبلج من سياقها، والتي حذف منها نفس الحرف لها كذلك دلالة يفرضها سياقها، ولكثرة ذلك في القرآن الكريم سأقف فيه مع بعض شواهده لتكون دليلًا علىٰ غيرها، ومن ثم جاءت بناؤه كما يأتي: دلالة حرف التاء مذكورا أو محذوفا، وكذلك حرف النون، والهمزة التي تذكر، والهمزة التي تحذف ويبقىٰ معناها، والاستفهام المضمر في سياق التشبيه، ونحو ذلك مما تناوله البحث، ومن أهم نتائجه: أن الحرف يحذف لسياق يستدعيه، ومقام يقتضيه، والسياق علىٰ أي حال بليغ مطابق باعتبار مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال الذي هو رأس البلاغة. والله ولي التوفيق.

الكلمات المفتاحية: حروف المباني- أثر حروف المباني في البلاغة- المعنىٰ القرآني- بلاغة المعنىٰ القرآني.

The Alphabetical Letters and Their Effect on the Eloquence of the Quranic Meaning

El-Sayed Mohammed El-Sayed Salam
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language in Menoufia, Al-Azhar University, Egypt.
E-mail: elsayedsallam.lan@azhar.edu.eg

Abstract:

This research clarifies the effect of the alphabetical letter-mentioned or omitted-in the eloquence of the Quranic meaning ;this is because the mention of the letter in its position is eloquent in terms of its place, and its omission is eloquent as well in terms of its place and context .The beauty of its connotation is manifested in its mention, as it is manifested in its omission, considering the correspondence of the speech to the occasion, and the connection of the beauty of connotation to the whole context .Here, the talk will be about the alphabetical letter mentioned in a word and omitted from another, in one construction, and a convergent or divergent context in the text of two different suras, the increase of the letter has a connotation that emerges from its context, and the one from which the same letter is omitted also has a connotation imposed by its context. For the abundance of this in the Holy Quran, I will stand in it with some of its evidences to be an evidence of others, and hence its construction came as follows: The connotation of the letter" Tā "'whether it is mentioned or omitted, as well as the letter" Nūn ,"the "hamza "that is mentioned, the" hamza "that is omitted and its meaning remains, the implicit question in the context of simile, and the like of what the research addressed. Among its most important findings is that the letter is omitted for a context that demands it ,and a position that requires it .The context is in any case eloquent ,identical and corresponding, considering the identity and corresponding

of speech to the occasion, which is the head of rhetoric. "And Allah is the guardian of success"

Keywords: Building letters - The effect of building letters on rhetoric - Qur’anic meaning - Eloquence of Qur’anic meaning.

مقدمة

أحمد الله رب العالمين حمدا يليق بكماله وجلاله، وأصلي وأسلم علىٰ خير خلقه والمصطفىٰ من بريته وعلىٰ آله والتابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين. وبعد:

هذا بحث في غاية الأهمية لكل من له علاقة بلغة العرب، ومهتم بالتدبر في بيان الحق –سبحانه–عملا بقوله تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص٢٩] ؛ لأن التدبر سيسفر عن جمال دلالة البيان القرآني، ويؤكد أنه ليس كمثله بيان، فهو من الله، والله كما قال عن ذاته﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ الشورىٰ١١، وهذا البحث يتحدث عن ذكر حرف المبني في شاهد، وحذفه من شاهد آخر والكلمة واحدة، ومهتم بجمال الدلالة في كل من الذكر والحذف، ونتيجة ذلك أن الحذف مطابق للمقام، والذكر كذلك، وذلك قد يأتي في كلمة واحدة في سياق واحد، وقد يأتي في سياقات متباعدة في سورتين مختلفتين، ولكل شاهد غرض يتطابق مع سياق السورة، ويتواءم مع مقصدها، الجامع لكل مشاهدها، ولاريب أنه من الإعجاز الذي بهر وقهر، وشواهد هذا كثيرة في القرآن الكريم، غير أنني اكتفيت ببعضها؛ ليكون دليلا علىٰ بقيتها، مع اليقين التام بأن لكل سياق ما يناسبه ولكل سورة مكانتها، لذا كان من أسباب اختيار هذا الموضوع: بيان جمال الدلالة البلاغية عند ذكر الحرف، وعند حذفه، وهذا بيان لا يستطيعه إلا العليم الخبير، ولا أعلم أحدا من المعاصرين خاض هذه التجربة، ولكن جذورها في بيان السابقين في التفسير، والبلاغة، وعلوم القرآن الكريم، وقام هذا العمل علىٰ المنهج التحليلي الذي يربط الكلمة بسياقها العام والخاص،

وعلاقته بمقصد سورتها، وقامت خطته علىٰ ذكر حرف كذا هنا وحذفه من هناك، كما هو ما ثل في سياق البحث، وانهيته بخاتمة تبرز بعض نتائجه، وثبت لمصادره ومراجعه، وفهرس لموضوعاته.

والله الموفق والهادي إلى صراطه المستقيم

أ.د: السيد محمد سلام

أستاذ البلاغة والنقد وعميد الكلية

حروف المباني وأثرها في بلاغة المعنى القرآني

تحدثت في العدد السابق عن أثر حروف المعاني في بلاغة المعنىٰ القرآني وفي هذا العدد يدور الحديث عن أثر حرف البناء-مذكورا أو محذوفا-في بلاغة المعنىٰ القرآني؛ وذلك لأن ذكر الحرف في مكانه بليغ باعتبار مقامه، وحذفه بليغ كذلك باعتبار مقامه وسياقه، فجمال دلالته يتجلىٰ في ذكره، كما يتجلىٰ في حذفه باعتبار مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال، وارتباط جمال الدلالة بالسياق كله ... فهنا سيكون الحديث عن حرف المبنىٰ يذكر في كلمة ويحذف من أخرىٰ، في بناء واحد، وسياق متقارب، أو متباعد في نص من سورتين مختلفتين، والتي زيد فيها الحرف لها دلالة تنبلج من سياقها، والتي حذف منها نفس الحرف لها كذلك دلالة يفرضها سياقها، ولكثرة ذلك في القرآن الكريم سأقف فيه مع بعض شواهده لتكون دليلًا علىٰ غيرها، ومن ذلك:

١ - قوله -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧].

وقوله -تعالىٰ-: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٢٨].

وقوله -تعالىٰ-: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢].

فقد جاءت ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ مرة واحدة في القرآن الكريم كله، وهي آية سورة النساء، وكانت استئناف بيان في الحديث عن الذين ظلموا أنفسهم -كما سيتبين-وجاءت

﴿نَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ مرتين في سورة واحدة، وهي سورة النحل، واحدة عن الذين ظلموا أنفسهم، والثانية عن الطيبين، وكل واحدة منها مفسرة للجملة قبلها، الأولىٰ تُفسِّر (الكافرين)، والثانية تفسر (المتقين)، كما سيأتي إن شاء الله.

فآية سورة النساء ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ بتاء واحدة "نزلت في أناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام، ولم يهاجروا، وأظهروا الإيمان، وأسروا النفاق، فلما كان يوم بدر خرجوا مع المشركين إلىٰ حرب المسلمين فقُتلوا، فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم، وقالوا لهم ما ذكر الله سبحانه"(١).

وجملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ اسم إن، وجملة ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حال، والخبر "فأولئك مأواهم جهنم"، وتوفاهم فعل ماض، وجاء التذكير بمعنىٰ الجمع، ويجوز أن يكون فعلًا مستقبلًا، والأصل (تتوفاهم) فحذفت إحدىٰ التاءين(٢).

أي أن النقص الذي حدث في صنيعهم صوّره اللفظ، فحذفُ التاء من "تتوفاهم" وإن كان الأصل ذكرها فيه؛ دلالة علىٰ نقص إيمانهم؛ حيث لم يهاجروا، وظلوا في مكان لا يتمكنون من إقامة الشعائر فيه، ولذلك جاء التعبير مبنيًا علىٰ التأنيب، والتوبيخ من الملائكة "فيم كنتم"؟ أي لمَ حدث النقص في أعمالكم؟ فقالوا: كنا مستضعفين في الأرض ... أي لم نتمكن من الخروج مع المهاجرين ... لذا كان

(١) أسباب النزول للواحدي، تحقيق: ماهر الفحل، ١٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس، علق علىٰ حواشيه: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٣٤. وينظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري، تحقيق: محمد علي البجاوي، طبعة الحلبي، ١/ ٢٨٤.

جواب الخبر: الحكم عليهم بجهنم "فأولئك" خصيصًا، ومن كان علىٰ شاكلتهم "مأواهم جهنم"؛ لتركهم الواجب، وتكثيرهم سواد الكفار..[١]

فحذف التاء هنا لفظًا دلّ علىٰ نقص في المطلوب منهم، وخلل في العمل، فيمكن أن يكون الفعل ماضيًا، كما قال النحاس، والفراء، وابن عطية، وغيرهم من أهل العلم، ويمكن أن يكون مضارعًا حذفت إحدىٰ تاءيه؛ للدلالة علىٰ النقص كما تبين، وعلىٰ كونه ماضيًا تكون الآية إخبارًا عن الماضي، ونزلت في قوم كانت هذه حالتهم علىٰ وجه الخصوص، وإن كان مستقبلًا كانت عامة في كل من كانت هذه حالته ... هكذا عبر عنه العلماء[٢].

عموم جمال الدلالة:

ولكن الذي يُرجّح هنا أن الآية إخبار عن قوم معينين حدث منهم هذا، كما سبق في بيان سبب النزول، فهي خاصة، ولا يمنع أن يخاطب بها كل من كان هذا شأنه، والعرب تذكر الخاص الذي يراد به العام، والقرآن نزل بلغتهم ... فالصفة خاصة بمن نزلت فيهم الآية، ولا يمنع أن تطلق علىٰ غيرهم، ومن هنا يبرز جمال الدلالة بالحال والمقام والزمان والمكان باعتبار الأحوال، والأحداث، ومن ثم قال السعد في الحديث عن التخصيص بالصفة:

---

(١) أفدت في بيان ذلك من نظم الدرر، ج٢/ ٣٠٢.

(٢) ينظر مثلًا: تفسير الرازي، ١١/ ١٩٥.

"ومنه تخصيص الشيء بالصفة؛ أي نقص شيوعه، وتقليل اشتراكه، وذلك بأن يكون الشيء مما يطلق علىٰ ما له تلك الصفة، وعلىٰ غيره، فيتقيد بالوصف؛ ليقتصر علىٰ الدلالة علىٰ ما له تلك الصفة دون القسم الآخر"(١).

أما ذكر التاء في آيتي سورة النحل مع الظالمي أنفسهم ومع الطيبين، فلم يكن الوصف (تتوفاهم) حديثًا مستأنفًا كما هو في آية سورة النساء، إنما جاءت في الآية الأولىٰ وصفًا للكافرين في الآية قبلها، وهي قوله -تعالىٰ-: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٧].

قال القرطبي: قوله -تعالىٰ-: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾، هذا من صفة الكافرين، وظالمي أنفسهم نُصب علىٰ الحال؛ أي وهم ظالمون أنفسهم إذ أوردوها موارد الهلاك، وقيل نزلت أيضًا فيمن نزلت فيهم آية النساء السابقة ..(٢).

وإذا كان ذلك كذلك فيبقىٰ السؤال هنا: لماذا زيدت التاء في قوله تعالىٰ: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ﴾؟

أرىٰ أن المقام في هذا السياق مقام غرور، وتكبر، ومكر، فجاء ذكر التاء ليضاهي مبالغتهم المذكورة في نفي حب الله لهم في قوله -تعالىٰ-: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾[النحل ٢٣].

وكذا حَمْلُهم أوزارهم كاملة في الآية بعدها ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً ... ﴾، والزيادة في قوله -تعالىٰ-: ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ ومعلوم أن السقف

(١) شرح التلويح علىٰ التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، سعد الدين التفتازاني، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٦م، ١/ ٢٦٨.

(٢) ينظر: تفسيره، ١٠/ ٩٨.

لا يكون إلا من فوق ... فناسب سياق كل هذا الزيادة في (تتوفاهم) حال كونهم ظالمين لأنفسهم.

وجمال الدلالة ينبلج من السياق جملة بدلالة الكلمة التي تهيمن علىٰ الموقف، ويبرز أثر السياق في التعبير بها مناسبة للموقف، وتقلب الأحوال.

لذلك قال ﴿نَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ هنا مع الظالمين، وجاءت بنفس الزيادة أيضًا مع الطيبين؛ لأنها كذلك تفسير لما قبلها، ولكنها هنا ليست في الإخبار عن القلوب المنكرة المستكبرة الماكرة .... إنما فيما هو عكس هذا الموقف تمامًا، وهو سياق الحديث عن المتقين المقرين بفضل الله وحسن عطائه، ومن ثم أنعم عليهم ووعدهم جنات عدن ... وجعلها جزاءهم، فقال -سبحانه-: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠، ٣١].

ثم يأتي موطن الشاهد ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ... ﴾ فهنا أيضًا تكريم يناسب هذه الزيادة التي يتجلىٰ منها تكرار التكريم، وتكرار التوفّي لكل من هذا حاله، ولكل من اقتدىٰ بهم ... فتلك مبالغة تناسب المتقين، والسابقة مبالغة تناسب المستكبرين، ولكل سياق ما يناسبه، ويبرز جمال الدلالة من موافقتها لمنطوق السياق ومفهومه كذلك؛ ليكون البناء النصي مطابقًا وجامعًا للمشهد الذي يجليه مبنًىٰ ومعنًىٰ.

ودلالة ﴿ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾في الأولىٰ جمعت كل ما يتعلق بذلك من الشرك والتهاون في أمر الله ورسوله، والركون إلىٰ الراحة، وعدم الخروج إلىٰ الجهاد ... أو الهجرة، وكلمة (طيبين) جمعت معالم الخير التي اتصفوا بها من تقوىٰ الله، والاستجابة لأمره، واجتناب نهيه ... واجتماع الحالتين في سورة النحل، وبزيادة واحدة يدل علىٰ براعة التقابل بين الموقفين، ويتناسب تمام التناسب مع مقصود

السورة، الذي قال فيه البقاعي: "الدلالة علىٰ أنه -تعالي-تام القدرة والعلم، فاعل بالاختيار، منزه عن شوائب النقص" (١)

فالتمام في الفعل ناسب التمام الذي دل عليه المقصد، **والنقصان** في ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾دون تتوفاهم﴿ تَتَوَفَّىٰهُمُ ﴾، علىٰ غير الأصل في آية سورة النساء، دل علىٰ خروجهم عن الأصل، وهذا أيضًا يتناسب مع مقصود سورة النساء، وهو: "الاجتماع علىٰ التوحيد الذي هدت إليه سورة آل عمران، والكتاب الذي حدّت إليه سورة البقرة لأجل الدين الذي جمعته سورة الفاتحة تحذيراً مما أراده شاس بن قيس وأنظاره من الفرقة. ولما كان مقصودها الاجتماع علىٰ ما دعت إليه السورتان قبلها من التوحيد، وكان السبب الأعظم في الاجتماع والتواصل -عادة – الأرحام العاطف التي مدارها النساء، سميت "سورة النساء". لذلك، ولأن بالاتقاء فيهن تتحقق العفة والعدل الذي لبابه التوحيد".(٢)

وهم بصنيعهم خرجوا علىٰ كل ذلك، ولم يكملوا شيئًا منه، ومن ثم جاء التعبير ناقصًا تناسبًا لما هم عليه.

دلالة حذف التاء وذكرها في كلمة واحدة في سياقات متباعدة:

وعلىٰ هذه الشاكلة من حذف التاء في كلمة، وذكرها في نظيرتها في سياقين مختلفين، مع تناسب كل كلمة لمقامها، قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٢].

جاءت الكلمة بتاءين في آية سورة النساء "ولا تتبدلوا"، وتاء واحدة في موقفين في القرآن الكريم:

(١) مصاعد النظر للإشراف علىٰ مقاصد السور٢/ ٢١٣

(٢) السابق، ٢/ ٨٦.

أولهما في سورة إبراهيم في قوله -تعالىٰ-: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

والثانية في سورة الأحزاب في قوله -تعالىٰ-: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

يتجلى جمال الدلالة عند زيادة التاء في قوله تعالى(ولا تتبدلوا) لفظًا ومعنى، في معنيين:

أحدهما: التحذير الذي يتجلىٰ في النهي، والتكلف علىٰ وجه العموم باستبدال الخبيث بالطيب؛ أي ترك الطيب لكم، وإعطائهم الخبيث؛ لأن الباء تدخل علىٰ المتروك، ثم يأتي الخصوص بالانتفاع بأموالهم إضافة إلىٰ أموالكم، وتذييل الآية بيان أن هذا العمل إثم كبير، وهلاك عظيم "إنه" أي هذا الصنيع، من ترك الخبيث لهم، وأخذ الطيب لكم، والانتفاع بأموالهم إلىٰ أموالكم، كله حوب كبير، حذر الله منه.

والثاني: زيادة التاء تدل علىٰ الزيادة المرتقبة في نفوسهم بسوء صنيعهم، مع ما استؤمنوا عليه مما يخص اليتامىٰ، كما أنها -أي الزيادة-تتكرر في كل زمان ومكان، وتتناسب مع النداء الأعظم الذي استهلت به السورة علىٰ وجه العموم، والحث علىٰ الالتزام بالأمر الذي هيأ له النداء وتكراره، ولفت النظر إلىٰ ما ختمت به الآية من تهديد ووعيد يتجلىٰ في قوله -تعالىٰ- في ختام الآية الأولىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾.[النساء١]

كما أن كلمة (بث) في الآية الأولىٰ أيضا ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً... ﴾ تتناسب معها هذه الزيادة، فالسياق يشد بعضه بعضا، ومراحله من بداية السورة تصب في هذه الزيادة، وهذه الزيادة تتوافق مع توالي التحذير وانتقاله من العموم ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ﴾ إلىٰ الخصوص في التحذير الثاني ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴾.

أما آية الأحزاب ﴿ وَلَا أَن تَبَدَّلَ ﴾ فلا تصلح فيها الزيادة؛ لأنها خطاب خاص للرسول -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- في أمر معلوم محدد؛ ليست فيه زيادة واقعة، أو متجددة بتجدد ما يحدث، كما في أموال اليتامىٰ ظلمًا هناك؛ لذلك قال -سبحانه-: ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ علىٰ وجه الخصوص، وإن كان أصلها ﴿تتبدل﴾ إلا أن البناء اللفظي يتناسب مع الهدف المعنوي.

وكذلك الشأن في آية سورة إبراهيم ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ ... ﴾ ففيه قمة التحديد، أرض تغاير أرضًا، دون الحاجة إلىٰ زيادة معلومة؛ لأن الأرض الجديدة في علم الغيب، ولكنها أرض بأرض، وهذا ظاهر اللفظ يُحكم به علىٰ ظاهر المعنىٰ.

تلك رؤيتي لجمال الدلالة في الفرق بين زيادة التاء وحذفها، ويدعم ذلك ما ذكره الزمخشري من أن (تتبدلوا) بمعنىٰ تستبدلوا؛ أي: ولا تستبدلوا الحرام -وهو مال اليتامىٰ- بالحلال -وهو مالكم- وما أبيح لكم من المكاسب، ورزق الله المبثوث في الأرض فتأكلوه مكانه ... والتفعل بمعنىٰ الاستفعال غير عزيز ... وقيل هو أن يعطي رديئًا ويأخذ جيدًا ...[1].

(١) ينظر: الكشاف، ١/ ٤٩٤.

وهذا يدل علىٰ أن هذا الصنيع طلب يخالف مبدأ السورة الذي استهلت به وهو ما كمن في النداء والأمر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ... ﴾ من تكاليف تحفظ لكل ذي حق حقه، لذلك نهىٰ عن استبدال الخبيث بالطيب علىٰ وجه العموم، ثم خصص النهي عن أكل أموالهم إلىٰ أموالكم؛ أي إضافة هذه إلىٰ تلك؛ مما يؤدي إلىٰ أكل أموالهم بالباطل، وكل ما ذكره العلماء بعد ذلك تفسير وتفصيل لهذا.

أما الآيتان الأخريان (تبدل) في سورتي: إبراهيم، والأحزاب، بتاء واحدة، فليس في سياقهما هذا التكلف أو الاعتداء، ومع ذلك لكل منهما مقامها، الذي تتآزر فيه مع سياقها، وقال الزمخشري في آية سورة إبراهيم: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾، والتبديل: التغيير، والمعنىٰ: تُبدّل هذه الأرض التي تعرفونها أرضًا أخرىٰ غير هذه المعروفة، وكذلك السماوات، وقيل تبدل أوصاف كل منهما ... وقيل يخلق بدلهما ..[1].

ومع كل هذه التفسيرات لكلمة (تبدل) نجد أنها خالية من التكلف والاعتداء وتجاوز الحد، وطمس التكاليف الذي رأيناه في آية سورة النساء ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾ وذكر الخبيث والطيب هناك قرينة علىٰ التكلف والاعتداء، وتجاوز الحدود، وطمس التكاليف التي نصت عليها المعاني في فاتحة السورة.

كما أن التبديل هنا أسند للأرض والسماوات ﴿ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ .... ﴾ والأرض مأمورة مسخرة، كما قال ربنا -سبحانه-: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ بخلاف آية النساء ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ﴾ فأسند الفعل إلىٰ عاقل مكلف.

أما آية الأحزاب ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ ﴾ فالتبدل هنا بمعنىٰ التغير أيضًا، ولا يمكن أن يحدث فيه تكلف أو اعتداء أو تجاوز؛ لأن المخاطب هو رسول الله -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-، وكان ذلك ردًّا علىٰ ما كان

(١) ينظر: الكشاف، ٢/ ٣٨٤.

يحدث في الجاهلية من أمور البدل التي لا تليق بمقام النبوة، وليكون ذلك دليلًا علىٰ تحريك هذه العادة الجاهلية، ودليلًا قبل ذلك علىٰ مكانة نساء النبي بعد أن خيرهن فاختارن الله ورسوله.

وفي ذلك يقول الرازي: "لما لمْ يوجب الله علىٰ نبيه القسم، وأمره بتخييرهن فاختارن الله ورسوله، ذكر لهن ما جازاهن به من تحريم غيرهنّ علىٰ النبي -عليه السلام-ومنعه من طلاقهنّ بقوله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾[1]"

فالحرف الواحد يذكر في الكلمة فيعطي دلالة من السياق كله، والنص الذي هو جزء من كيان هذا السياق، ومرتبط به، ومتآلف معه، غير التي تعطيها نفس الكلمة بحذف هذا الحرف منها، ولكل مقام مقال.

الفرق بين دلالة الفعل (ولا تفرقوا) والفعل(ولا تتفرقوا):

ومن شواهد هذا النوع من الكلام قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فهنا جاء الفعل (تفرقوا) بتاء واحدة، ولكنه جاء في آية سورة الشورىٰ بتاءين (ولا تتفرقوا)، قال -تعالىٰ-: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

(١) تفسيره، ج٢٥/ ٢٢٣.

فالنهي في النصين واحد، وهو نهي عن التفرّق، ولكنه في آية آل عمران بتاء واحدة (ولا تفرقوا) وفي آية الشورىٰ بتاءين (ولا تتفرقوا) وهذا هو الأصل؛ لأن معنىٰ (ولا تفرقوا) ولا تتفرقوا، فلماذا جاءت الأولىٰ بهذا الدمج؟

والجواب عن ذلك: أن سياق آية آل عمران قائم علىٰ الدعوة إلىٰ البقاء علىٰ الأصل الذي جاء به الدين الإسلامي، وحذف التاء يدل علىٰ الترابط الذي نص عليه السياق بالاستمرار علىٰ إقامة معالم هذا الدين، والسياق السابق لخصه الأمر الأول في هذه الآية، وجمع معالمه حين قال: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا ... ﴾، وهذه دعوة إلىٰ قمة الترابط، لذلك قال (جميعًا) ثم جاء النهي الذي يعضد ذلك ببناء الفعل علىٰ الترابط لا التفكك فقال: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، وبناء الفعل علىٰ هذه الشاكلة تقوية للأمر السابق ﴿ وَٱعْتَصِمُوا ﴾ وتوطئة للأمر الذي جاء بعده ﴿وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ... ﴾، والنهي حينما يأتي بين أمرين مثل هذا، لا بد أن يكون مطابقًا لهما، وأن تكون دلالته مستمدة من سياقه.

وبناء عليه فجمال الدلالة هنا هو تأكيد الدعوة إلىٰ الترابط، وتفعيل مبادئ الدين الذي أقاموه، والذي وضحه السياق السابق في قوله -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ فكان هذا الأمر وذاك النهي تهيئة للاعتصام بحبل الله، وذلك كله يستدعي أن يكون الفعل المنهي عنه مبنيًا علىٰ التجمع المراد، ومناسبًا للتذكير بنعمة التأليف التي أحدثها الله في قلوبهم، ولو جاء الفعل علىٰ الأصل بتاءين لكان منافيًا لفظًا ومعنىٰ، مع دلالة هذا السياق قبله وبعده.

ولذلك قال الزمخشري خلال شرحه ذلك: "أو ولا تحْدثوا ما يكون عنه التفرق، ويزول معه الاجتماع، والألفة التي أنتم عليها، مما يأباه جامعكم، والمؤلف بينكم، وهو اتباع الحق، والتمسك بالإسلام ..."(١).

فجمال الدلالة بحذف التاء يتناسب مع الأمر بالاعتصام، والتذكير بالنعم التي أعلاها الألفة، وما يترتب عليها من نعم، وسياق الاجتماع يستدعي اجتماع التاءين، ودمجهما لفظًا يعبر عن غزارة المعنىٰ.

أما آية الشورىٰ، فلم يكن الدين مُقامًا أصلًا، بل كانوا متفرقين ومختلفين، والدليل علىٰ ذلك قوله -تعالىٰ-: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ...﴾ [يوسف: ١٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ...﴾ [المائدة: ٤٨].

فهذه مجموعة أمم، من نوح إلىٰ محمد -عليهما السلام-وذكر التاءين في بناء اللفظ يدل علىٰ هذا التعدد، وقوله -تعالىٰ-: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ تفسير لما شرعه -سبحانه-وبيان له، وقوله ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾ بتاءين دلالة علىٰ تعدد الأمم، وصعوبة ما شرعه الله علىٰ بعضهم؛ لذلك وضح هذه الصعوبة بقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[الشورىٰ١٣]؛ أي عظم عليهم هذا الاتحاد علىٰ إقامة الدين الذي أراده الله -سبحانه-، ففك الإدغام هنا يدل علىٰ تعدد الأمم، ولذلك قال: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ بضمير الغيبة، ثم انتقل السياق منها إلىٰ خطاب الحاضر، فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ

(١) الكشاف، ١/ ٤٥١.

﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، وفيه يقول الرازي: "وبالجملة، فالمقصود من الآية أنه يقال: شرع لكم من الدين دينًا تطابقت الأنبياء علىٰ صحته ..."(١).

وهذا هو الاصطفاء الذي اصطفىٰ الله به أمة محمد -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- في قوله عقب ذلك ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[الشورىٰ١٣]، وبناء عليه تجتمع دلالة الفعل في الدعوة إلىٰ إقامة الدين علىٰ الوجه الذي تتّحد به الشرائع كلها، وأن الدين واحد من لدن آدم إلىٰ محمد -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-، وهذه التاء دالة علىٰ هذا التعدد، والنهي عن التفرق، وفي باطنه الدعوة إلىٰ الترابط، بخلاف آية آل عمران، فكان الدين قائمًا جليًا، ولكن النهي عن التفرق كان معضدًا للأمر بالاعتصام، وبناء عليه جاء الفعل مدموجًا بتاء واحدة ليحقق الدعوة إلىٰ الترابط والتآلف الذي يكون سببه الاعتصام بحبل الله.

فما جاء بتاء واحدة كان لأمة واحدة؛ لتجتمع علىٰ ما أمر الله به، وما جاء بتاءين كان لمجموعة الأمم التي أوصاها الله بإقامة دينه، والابتعاد عن التفرق، وإن كان ذلك كبيرًا علىٰ المشركين بالله، وطريق نجاة لمن اجتباهم الله به.

جمال الدلالة في حذف نون الجمع وذكرها على التوازي:

وكذلك جاء الخبر علىٰ التوازي بين كلمتين، إذا ذكرت (إننا) بنونين جاءت (تدعونا) بنون واحدة، وإذا ذكرت (إنا) بنون واحدة جاءت (تدعوننا) بنونين، ولكل سياق ما يناسبه، وجمال الدلالة والسياق يتجليان في كل نص بما يحقق المراد.

(١) تفسيره، ج٢٧/ ١٥٧.

ولنبدأ بذكر الشاهدين، الأول في قوله -تعالىٰ- في الحديث عن سيدنا صالح -عليه السلام-: ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦٢].

والثاني في الإخبار عن حديث موسىٰ -عليه السلام- مع قومه، قال -تعالىٰ-: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم: ٨-٩].

لو تأملنا نسيج السياقين لوجدنا أن آية سورة هود كانت في مخاطبة قوم صالح -عليه السلام- يذكّرونه بمكانته السابقة عندهم، قبل أن يكلف بالدعوة إلىٰ الله ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾[هود٦٢]؛ أي كان لك بيننا شأن عظيم، ثم يتوعدونه وينكرون عليه نهيه لهم عن عبادة ما يعبدون من دون الله .. ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾[هود ٦٢] يستعظمون عليه ذلك وينكرونه إنكارًا مشوبًا بالتهديد والوعيد، ولما كان الشأن بهذه القوة منه في حرصه عليهم، وهذه القوة منهم بهذا الإنكار والوعيد .. استدعىٰ السياق أن يؤكد الضمير بما يدل علىٰ جمعهم ويطابق قولهم، ويناسب قوة المعنىٰ في ضمائرهم، ويتآزر مع ما جاء حالًا منه بناءً ومعنىٰ (أتنهانا) التي هي جملة مكتملة الأركان مكونة من فعل وفاعل ومفعول، ومعبرة عن دواخلهم بقوة، وهي "جملة مستأنفة في حيز القول ... وجملة "وإننا لفي شك" حالية من مفعول "تنهانا" في محل نصب ..."[1]، وعلىٰ ذلك جاءت صياغة الضمير

(١) مشكل إعراب القرآن، أ. د. محيد الخراط، ص٢٢٨.

بهذا التأكيد "وإننا" لتكون دلالته منبثقة من قوة السياق والمقام، وغير نافرة منه، أو ضعيفة عنه ...

ولما كان نبي الله صالح هو الداعي لهم وحده جاء الفعل (تدعونا) علىٰ الأصل بنون واحدة، ولا يستقيم هنا تدعوننا كما في شاهد سورة إبراهيم، وفي ذلك يقول الكرماني: وتدعونا خطاب مفرد، وفي إبراهيم لما وقع بعده -أي بعد إنا- تدعوننا بنونين؛ لأنه خطاب جمع حذف منه النون؛ استثقالًا للجمع بين النونات، ولأن في إبراهيم اقترن بضمير قد غير ما قبله بحذف الحركة، وهو الضمير المرفوع في قوله (كفرنا) فغيّر ما قبله في (إننا) بحذف النون، وفي هود اقترن بضمير لم يغير ما قبله، وهو الضمير المنصوب، والضمير المجرور في قوله: ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [سورة هود:٦٢]، فصح كما صح"(١).

وبناء علىٰ ذلك جاء الضمير مؤكدًا ومجموعًا في آية سورة هود؛ ليتناسب مع سياقه، وجاءت (تدعونا) بنون واحدة؛ لأن الداعي واحد، ولا يصلح فيها غير ذلك.

أما ما جاء في سورة إبراهيم فكان خطابًا من سيدنا موسىٰ -عليه السلام- مقررًا لهم بمعرفة أخبار من سبقوهم، ومنكرًا عليهم تجاهلهم ذلك، وقد عرفوه، ثم عدّد هؤلاء الأقوام: نوح، وعاد، وثمود ... الذين كانوا عبرة، وذاعت وشاعت أخبارهم بما حدث لهم؛ جزاء علىٰ صنيعهم لما جاءتهم رسلهم، ولقد لخص الحق هذا الصنيع في قوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾؛[إبراهيم٩] "أي أشاروا بأيديهم إلىٰ ألسنتهم وما نطقت به (وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به)"(٢).

---

(١) أسرار التكرار في القرآن، تحقيق: عبد القادر عطا، دار الاعتصام بالقاهرة، ط٢، ١٣٩٦، ص١٠٨.

(٢) روح المعاني للألوسي، ١٣/ ١٩٢.

فقولهم "إنا" جاء عطفًا علىٰ قولهم "إنا كفرنا"، وفيه يقول الإسكافي: "ثم قوله -تعالىٰ-: (إنا كفرنا) حُذفت منه النون تشبيهًا للضمير بعدها بالضمير المرفوع بعد الفعل، فكما أن الفعل يلحقه حذف حركة عند اتصال هذا الضمير به، وكان الضمير يحذف من أن النون حذفت ليقتضي لفظها عند اتصاله بما هو كالضمير المرفوع لفظًا ومعنىٰ وموقعًا؛ حملًا علىٰ ما تقدم كما يكون عليه إذا لم يواصله، وجاءت (تدعوننا) علىٰ مقتضىٰ الإعراب الواجب لها بنونين"[1].

نظرة وتأمل:

أي أن مجيء (إنا) بنون واحدة لمشاكلة السياق، ولكن -من وجهة نظري- لا يكفي هذا؛ لأن قوله (إنا كفرنا ..) بنون واحدة جاءت ردًا علىٰ موسىٰ بقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[إبراهيم٨]؛ أي لا يضير الله في شيء، وكذلك ردًّا -أيضًا- علىٰ إنكاره عليهم معرفة أخبار الأقوام السابقين، ومع ذلك أنكروا، وأشركوا .. ثم تأتي (إنا كفرنا) و(إنا لفي شك) بنون واحدة لتؤكد أن تراكم الغيظ والضيق المسيطر علىٰ قلوبهم، كان من جراء من هذه الدعوة التي جاء بها موسىٰ، فهي تصور دواخلهم بما هو مكبوت فيها، ولكن جاءت (تدعونا) بنونين؛ لأنه خطاب للرسل الذين جاءوا للأمم السابقة، وكانت دعوة موسىٰ امتدادًا لدعوتهم .. فهنا مبالغة عظيمة تستدعي النونين (تدعوننا) كأنهم لم ينكروا دعوة موسىٰ فقط، بل دعوة كل من سبق موسىٰ؛ تأييدًا منهم للأمم السابقة فيما صنعوا وتحدّيًا للأنبياء فيما حدث لأقوامهم، دون مبالاة بكل ذلك.

(١) درة التنزيل وغرة التأويل، ١٦٤.

ومن هذا يتجلىٰ جمال الدلالة في آية سورة هود بخيبة ظنهم جميعًا علىٰ التفصيل فيما كانوا يرجونه من سيدنا صالح -عليه السلام-، لذلك قالوا: (وإننا) ولكن قالوا (تدعونا) لأنه كان واحدًا، وهم علىٰ اختلاف منازعهم كانوا يرجون منه غير ذلك.

كما يتجلىٰ في آية سورة إبراهيم بإفراد الضمير (إنا) تصويرًا لتراكم الغيظ، والكمد مما يدعوهم إليه موسىٰ-عليه السلام-، ومما يذكرهم به من حال الأقوام السابقين الذين أنكروا رسالة رسلهم، وجاءت (تدعوننا) مناسبة لعموم الرسل، ثم يأتي السياق بعدها يعضد ذلك في قوله -تعالىٰ-: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ...﴾ [إبراهيم: ١٠].

فكل سياق يجلي دلالة التعبير، ويربط علىٰ قلوب الألفاظ لتبقىٰ المعاني فيها معبرة عن دواخل أصحابها ... والألفاظ صورة للمعاني وتعبير عن الكوامن، وتلك جمال الدلالة والسياق في النصين السابقين.

دلالة الحذف والذكر في الفرق بين قول الحواريين والوحي إليهم:

من شواهد حذف نون الجمع وذكرها يتجلىٰ الفرق بين سؤال رسول، ووحي إله، وذلك في كلام حواري عيسىٰ -عليه السلام-في نصين متقاربين، أحدهما في سورة آل عمران وهو قوله -تعالىٰ-: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، والثاني في سورة المائدة، ولكنه خطاب من رب

العالمين، قال -تعالىٰ-: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١١].

فمع سؤال عيسىٰ -عليه السلام- قالوا: ﴿ وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾، ومع إخبار الحق -سبحانه- قالوا: (وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾)؛ لأنهم في الأولىٰ أقروا الإيمان بالله، واتخذوا عيسىٰ شاهدًا علىٰ ذلك، فقالوا: آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون، آثروا الإيجاز، الذي يتطابق مع مجرد الإحساس الذي أحسه عيسىٰ منهم، وهذا خطاب بشر لبشر، أما آية المائدة فالله هو الذي أوحىٰ إليهم -ولو كان علىٰ لسان عيسىٰ- فهو المتكلم هنا، بادئًا بالإيمان به -سبحانه- ثم برسوله (ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى)، فقالوا -جوابًا للحق سبحانه- (ءَامَنَّا) واتحذوا الله شهيدًا (وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾) فجاء الكلام علىٰ الأصل مدعومًا بالقوة التي تتناسب مع دعوة الحق ووحيه ... وهذا فرق بين حوار في حضرة الرسول، وحوار في حضرة الذات الإلهية.

ويعلل الكرماني القول بـ(أننا) في المائدة جاء علىٰ الأصل، وأن ما في آل عمران بـ(أنا) تكرار لكلامهم، فجاز فيه التخفيف؛ لأن التخفيف فرع، والتكرار فرع، والفرع بالفرع أولىٰ[1]، وهو ما شرحه الإسكافي[2].

نظرة وتأمل:

ولست ممن يقتنع بهذا التعليل الذي يراعي ظاهر اللغة، ويترك بواطن الكلمات التي تصور دواخل النفوس وتعبر عن أسرار الشعور، فالكلام هنا جاء علىٰ أصله؛ لأن الوحي (بمعنىٰ الإلهام هنا) صدر من أصل من أنزل وأرسل، ثم قدم الإيمان

(١) ينظر: أسرار التكرار ٥٠

(٢) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل ٥٢.

بالله لأنه هو الأصل أيضًا، وهو الذي يهدي إلىٰ الحق، ثم قال: (وبرسولي) إيجازًا في التعبير؛ لأن التقدير: وآمنوا برسولي، وهذا الإيجاز يفيد بأن الإيمان بالرسول جزء الإيمان بالله، ولا يكفي أحدهما عن الآخر؛ لأن الواو لمطلق الجمع ... ولهذا ونحوه ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ بالتعبير بمزيد من البيان والتأكيد، كما أن الحديث هنا في مقام تعديد نعمه -سبحانه-، وهذا الوحي منها، فقد سبق أن الله -سبحانه وتعالىٰ- قال: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ ...﴾ [المائدة ١١٠] إلىٰ أن قال: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ ...﴾، فمقام تعديد النعم من المنعم ذاته يحتاج إلىٰ أن يكون القول مؤكدًا، ومعبرًا به علىٰ أصله وتمامه (بأننا مسلمون)؛ لأنه إحدىٰ نعم الله علىٰ عيسىٰ -عليه السلام- أما آية سورة آل عمران ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ فسياقها يتحدث عن نعم الله علىٰ (مريم) من أول قوله -تعالىٰ-: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥-٥١] إلىٰ أن تولىٰ عيسىٰ مهمة الدعوة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۗ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾، فلما استشعر منهم الكفر ﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾، وقولهم (بأنا) هنا دون (بأننا)؛ لأن الحديث عن الله وحده في السؤال والجواب، فكان هو الركيزة العليا، بخلاف آية المائدة (آمنوا بي وبرسولي) وكلما اشتد المبنىٰ اشتد المعنىٰ المعبر باللفظ عنه، وكل شاهد في القرآن له في موقعه دلالة، ولسياقه جمال يناسبه، كما تبيّن.

دلالة حذف الحرف وذكره في خطاب واحد ومقام مختلف:

ومن أبرز الشواهد الدالة علىٰ ذلك: أن النبي -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-خُوطب بخطاب واحد في موقفين مختلفين، ونص الخطابين واحد عدا حرف واحد في كلمة ذكر فيها في موطن، وحذف منها من الآخر، مع اختلاف السياق قبل وبعد كل نص منهما.

والموقفان هما قوله -تعالىٰ-في سورة النحل: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقوله -تعالىٰ-في سورة النمل: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠]، ففي الأولىٰ "ولا تك" وفي الثانية "ولا تكن" لماذا؟

بيان ذلك: من خلال سياق النص في سورة النحل، نلحظ أن الخطاب بدأ عامًا تسلية للرسول -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-وتوجيهًا لكل من آمن، ثم خُصّص بعد ذلك برسول الله -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-؛ لأنه جاء في واقعة معينة حدثت، وتكلم فيها الرسول بالوعيد.

فكان العموم في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ إقامة للعدل في الأرض، وعدم المبالغة في العقوبة؛ لذا جاء التعبير بلفظ المشاكلة، وفيه دعوة للالتزام بأن تكون المجازاة علىٰ قدر الحدث ... ثم انتقل السياق من هذا العموم إلىٰ الخصوص، وكأن هذا العموم كان توطئة لهذا الخصوص تدريجًا وترقيًا في بيان المطلوب والمشروع، فقال -تعالىٰ- محددًا الخطاب لمن توعد ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، وبدأ بالعموم لأن الرسول لم يكن فاعلًا وحده، بل كان معه من

تآزر معه من القوم، والخصوص هنا يتجلىٰ في سبب نزول الآية الذي يتلخص في أن المشركين يوم أحد مثّلوا بمن قُتل من المسلمين، وفعلوا بحمزة ما لم يُفعل مما لم ير الرسول -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- مثله، فلما رآه توعد بقوله: "لأمثلن بسبعين منهم"، فنزلت خواتيم سورة النحل ...(١).

وبناء عليه فقطع الحرف من الكلمة (ولا تك) في هذا السياق، يدل علىٰ خصوص الحدث وعدم امتداده، فهو حدث مقطوع، كما يدل علىٰ الحث علىٰ التصبر وقطع اليأس والضيق؛ أي الغم الذي أصاب النبي -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- في هذه الحالة، بل حذف الضيق والحزن من نفسه، فنهىٰ الله عنهما تسلية لرسوله -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ ...﴾.

وفيه معنىٰ التخفيف الذي ذكره بعض العلماء والمفسرين؛ حيث قالوا: قرئ ﴿وَلَاتَكُنفِيضَيْقٍ﴾؛ أي ولا يضيق صدرك من مكرهم، والضيق تخفيف الضيق، أي في أمر ضيق ...(٢).

وقال البقاعي ... قال (وتك) بحذف النون -وحذفه تخفيفًا أيضًا يتناسب مع التسلية- إشارة إلىٰ ضيق الحالة عن أدنىٰ إطالة ...(٣).

وذكر الرازي الفائدة من ذكر لفظ الضيق بهذا التركيب، فقال: "هذا من الكلام المقلوب؛ لأن الضيق صفة، والصفة تكون حاصلة في الموصوف، ولا يكون الموصوف حاصلًا في الصفة، فكان المعنىٰ: فلا يكن الضيق فيك، إلا أن الفائدة في

(١) ينظر: أسباب النزول للواحدي ١٦١.

(٢) الكشاف ٢/ ٤٣٥.

(٣) نظم الدرر ٤/ ٣٢٦.

قوله (ولا تك في ضيق) هو أن الضيق إذا عظم وقوي صار كالشيء المحيط بالإنسان من كل الجوانب، وصار كالقميص المحيط به، فكانت الفائدة في ذكر هذا اللفظ هذا المعنىٰ، والله أعلم"[1].

أما آية سورة النمل فجاء فيها الفعل مكتملًا (ولا تكن)؛ لأنه حدث تاريخي مكتمل، والدعوة إلىٰ السير، والتأمل، والاعتبار للحث علىٰ الامتثال لأمر الله ورسوله، والالتزام بهما، حتىٰ لا تكون العاقبة كما حدث للأمم الماضية سوىٰ صنيعهم، فالمقام هنا وإن كان مقام تسلية أيضًا إلا أنه ليس كسابقه في واقعة محددة، بل هنا دعوة للسير والنظر، دعوة كاملة، ولكن جاء التعبير واحدًا لاشتراك الفريقين هنا وهناك في عدم الإيمان، وحرص النبي علىٰ إيمانهم، فقال: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، تسلية له -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- والضيق في آية سورة النحل مصدره معروف حيث كان من صنيعهم السابق في التمثيل بالقتلىٰ، ومنهم حمزة ومكرهم الممتد الذي لم يتوقف بعد، ولكن الضيق هنا كان بسبب كيدهم للنبي والمؤمنين وتدبيرهم له.

وخير من عبر عنه البقاعي في قوله: "ولما كانوا لا يقتصرون علىٰ التكذيب، بل يبغون للمؤمنين الغوائل وينصبون الحبائل، قال: (ولا تكن) مثبتًا للنون؛ لأنه في سياق الإخبار عن عنادهم واستهزائهم، مع كفايته -سبحانه وتعالىٰ-لمكرهم بما أعد لهم من سوء العذاب في الدارين، فلا مقتضىٰ للتناهي في الإيجاز والإبلاغ في نفي الضيق ..."[2].

ومن ثم يتجلىٰ جمال دلالة حذف الحرف هنا؛ لحذف الضيق والحزن من النفس، ولأن الموضوع واحد محدد، كما يتجلىٰ جمال دلالة ذكر الحرف في آية سورة النمل لعدم وجود ما يقتضي حذفه؛ حيث الموضوع سير في الأرض ونظر

(١) تفسيره ٢٠/ ١٤٤.

(٢) نظم الدرر، ٥/ ٤٤٧.

باعتبار، وهذا ممتد بامتداد أزمان، فمن ثم اكتمل الفعل ليتواءم مع السياق، كما تم حذف نونه هناك مطابقة للحال والمقام.

وكثر في القرآن الكريم هذا النوع من البيان، بحذف النون، وذكرها من الفعل: يك، ويكن، وتك، وتكن، وأك، وأكن.

وكل نوع من البيان في موطنه بليغ مطابق للسياق والمقام، ولكل شاهد لالة تنطلق من نص البناء وسياقه، وتتطابق مع المقام الذي ورد فيه، والمقصود العام للسورة هو الذي يجمع معالمها وتنطلق منه أغراضها ...

وقد سبق بيان دلالة الحذف في قوله: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، ولو تأملنا علىٰ هذه الشاكلة شواهد أخرىٰ سنجد اختلاف السياق له أثر في البناء المعبر عن المعنىٰ المراد.

فلو تدبرنا الشواهد التي حذفت منها النون مثلًا وصار الفعل "تك" سواء سبقته "إن" أو "لا" أو "لم" وجدنا أن الحذف فيها كلها يُشعر بنفي شيء، وإثبات آخر بأحد طرقي الكلام: الخبر أو الإنشاء، بالإضافة إلىٰ دلالة تنبثق من هذا يوحي بها النص.

دلالة حذف النون في مقام القطع والتضعيف:

قد يكون الحذف في مقام قطع شيء، وتضعيف آخر، من باب الحث، والإلهاب للبحث عن الحق والسعي في الخير، كأن يأتي الشاهد في سياق الأمر بالعبادة، والإحسان، والتحذير من البخل، والترغيب في الإنفاق، ومن ذلك قول الله -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ٤٠] جاء هذه الآية في سياق الأمر بعبادة الله، وعدم الإشراك به تأكيدا لوحدانيته، والإحسان إلىٰ الوالدين، وذي القربىٰ، واليتامي، والمساكين، والجار ذي القربىٰ، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم... فجاء الكلام هنا كناية عن امتناع الظلم عن الله، وقطعه عنه كلية، كما أنه كناية عن أن الإنسان إذا لاحت الحسنة في نفسه، حتىٰ لو لم يعملها، يؤجر عليها، فإن عملها ضوعف له أجرها، فقوله -سبحانه- (وإن تك حسنة) ترغيب في أقل ما يقال حسنة.

فالحذف هنا معبر عن أمرين، أحدهما: قطع الظلم عن الله تمامًا، والثاني: مضاعفة أصغر ما يقال له حسنة، والحديث الشريف يوضح ذلك: "من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ... ، والتعبير بأصغر شيء وهو مثقال الذرة، في نفي الظلم عن الله، يقتضي مضاعفة الحسنة، وإن كانت أيضًا مثقال ذرة.

والكلام هنا جلي عن المقدار، والمقدار المتحدث عنه ضئيل جدًا، وهذا يناسبه حذف النون ..

ويقول البقاعي: "ولما ذكر التخلي من الظلم، أتبعه التحلي بالفضل، فقال عاطفًا علىٰ ما تقديره: فإن تك الذرة سيئة لم يزد عليها، ولا يجزي بها إلا مثلها،

ولما كان تشوف السامع إلىٰ ذلك عظيمًا حذف منه النون بعد حذف المعطوف عليه تقريبًا لمرامه، فقال: (تك) أي مثقال الذرة، وأنثه لإضافته إلىٰ مؤنث، وتحقيرًا له ليفهم تضعيف ما فوقه من باب الأولىٰ"[1].

فإذا كانت سورة النساء التي فيها هذا الشاهد -كما سبق- مقصودها الاجتماع علىٰ التوحيد، فإن هذا الترغيب من ملائمات المقصد؛ حيث يرغب الله في الحسنة ولو كانت مثقال ذرة، فإن الله لا يبغضها، بل يضاعفها ويزيد عليها من لدنه أجرًا عظيمًا.

فخلاصة القول إن حذف النون دلالة علىٰ أن الله يكافئ علىٰ أصغر الأعمال، ولذلك يقول الزركشي: "حذفت النون تنبيهًا علىٰ أنها وإن كانت صغيرة المقدار، حقيرة في الاعتبار، فإن إليه ترتيبها وتضاعيفها، ومثله ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ [لقمان: ١٦] وكذلك: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾ [غافر: ٥٠]، جاءتهم الرسل من أقرب شيء في البيان الذي أقل من مبدأ فيه وهو الحسّ إلىٰ العقل إلىٰ الذكر، ورقّوهم من أخفض رتبة، وهي الجهل، إلىٰ أرفع درجة في العلم، وهي اليقين، وهذا بخلاف قوله -تعالىٰ-: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠٥]، فإن كون تلاوة الآيات قد أُكمِل كونه وتم، وكذلك ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧] هذا قد تم كونه، وكذلك ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [البينة: ١] هذا قد تم كونهم غير منفكين إلىٰ تلك الغاية

(١) نظم الدرر، ٢/ ٢٥٨.

المجعولة لهم، وهي مجيء البينة، وكذلك: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ ﴾ [المؤمن: ٨٥] انتفىٰ عن إيمانهم مبدأ الانتفاع وأقله، فانتفىٰ أصله"(١).

نقلت النص كله لأنه جمع معالم الموضوعات، حذفًا للحرف، وذكرًا له، وأتىٰ بشواهد من هنا وهناك، وبيّن أن دلالة الحذف ترجع إلىٰ القلة، والصغر، ودلالة الذكر ترجع إلىٰ التمام والكمال، فالبناء النصي يوحي بجمال الدلالة بإيجاز، وهذا كله يتطابق مع سياق كل قول.

دلالة حذف الحرف في إزالة الشك وإثبات الحق:

نجد جمال الدلالة في ذلك عند التأمل في قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ [هود: ١٧]، وقوله -تعالىٰ- بعدها باثنتين وتسعين آية في نفس سورة ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ [هود: ١٠٩].

فالمقصود بحذف الحرف هنا إزالة أدنىٰ شك في أن النار موعد من كفر، وإزالة أدنىٰ شك في الحق الذي جاء به من عند الله، وفي هذا تثبيت للنبي -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- وتجلية لمقصود السورة الذي يسري في كل أنفاسها، وأن حركة معناها بادية في جميع آياتها، ومقصودها كما قال البقاعي: "وصف الكتاب بالإحكام والتفصيل في حالتي البشارة والنذارة المقتضي لوضع كل شيء في أتم محاله، وإنفاذه مهما أريد، الموجب للقدرة علىٰ شيء"(٢).

(١) البرهان، ١/ ٤٠٨، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة التراث.

(٢) مصاعد النظر للإشراق علىٰ مقاصد السور، ٢/ ١٧٠.

فعندما نرىٰ حذف النون هنا نعرف أن هذا من الإحكام بوضع كل شيء موضعه الأخص الأشكل به، الأتم الأكمل له، وكذلك الشأن في الآية الثانية من نفس السورة ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ... ﴾.

أي اقطع أدنىٰ شك في هذا، ولذلك ختمها بقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾، ولو تأملنا سياق الآية الأولىٰ رقم ١٧، لوجدنا أن قبلها ما يعضد هذا الحذف تناسبًا مع ما قاله النبي -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- من ضيق صدره بقولهم: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود: ١٢] كأن الحق يثبته علىٰ ما نزل عليه، ويخبره بعدم ضيق صدره من كلامهم، بأدنىٰ ما يكون الضيق، من قولهم ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ ... ﴾ أو قولهم بعد ذلك (افتراه ...).

فكان الحذف دالًا دلالة قاطعة علىٰ دقة المعنىٰ التي تصور حالة النفس، وتمحو منها أدنىٰ مرية، ويستمر السياق بعد ذلك يحكي عن قوم نوح، وجدالهم، ويتكرر هناك قولهم بالافتراء ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ... ﴾ [هود ٣٥].

وكذلك شأن هود مع قومه، وصالح مع قومه، ولوط، ومدين ... وهكذا كان السياق كله تسلية، وتثبيتًا للرسول -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- ثم يقول له -سبحانه-: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ... ﴾ [هود: ١٠٩]. فكان الحذف هنا لتنقية النفس من أدنىٰ تأثير بقولهم، واتهامهم، وتكذيبهم.

ويعلق الإسكافي علىٰ الحالتين الذكر (تكن) والحذف (تك) ببعض الشواهد، التي منها شاهدنا هذا، فيقول في بيان قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [السجدة: ٢٣].

أتىٰ بالنون في (تكن) وقال في سورة هود في موضعين (فلا تك) وكان حق ذلك أن يذكر هناك بغير نون ... ثم تكلم عن حركة النون وسكونها في (تكن) فقال: لما أشبهت بسكونها حروف المد واللين، ثم كثرت استجيز حذفها للسببين جميعًا، فإن تحركت خرجت عن شبهها (أي بحروف المد واللين) نحو: لم يكن الرجل منطلقًا ... فلا يجوز لم يك الرجل.

فأما إذا سكنت وتحرك ما بعدها فلك أن تأتي بها، ولك أن تحذفها، كما جاء في الموضعين، والمختار فيها الحذف إذا تحرك ما بعدها متىٰ تعلقت بالجمل الكثيرة، ويختار إثباتها إذا تعلقت بالقليلة؛ لأن الكثرة أحد سببي جواز حذفها ... فالمواضع التي حذفت فيها تقدمها جمل كثيرة، أما قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ [السجدة: ٣] لم يتقدمه ما ينقله من الجمل[1].

اعتراض وتأمل:

لو تأملنا الشواهد التي جاءت بإثبات النون لوجدنا عكس ما يقوله الخطيب الإسكافي، فمثلًا ورد (لم تكن) بإثبات النون في آيات كثيرة مبنية علىٰ جمل كثيرة، وكل جملة منها تسلم للتي بعدها، والقرآن -كما نعلم- مترابط، وكل آية فيه تهيء للتي بعدها، فمثلًا قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٥٣] هذه هي الآية الثالثة والخمسين في سورة، وبعده الآية ١٠٥ من السورة نفسها: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾،

(١) درة التنزيل وغرة التأويل، ٢٧٤ باختصار.

وبعدهما الآية ١١٣: ﴿... وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾، وغير ذلك كثير، وقد جاءت فيه النون (تكن) ومسبوق بجمل كثيرة ... ومن ثم فذكر الجمل الكثيرة قبلها ليس هو الدليل علىٰ ذكرها، بل ذلك يرجع إلىٰ تمام الأمر وكماله، وحذفها لمراعاة حال النفس بمنعها من الريبة، ولو كانت ضئيلة، أو صرف السوء عنها بحذافيره، بحيث لم يكن له إثبات أي أثر كما قالت مريم ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٠]، أي ليس فيها أدني شيء من هذا، فالقطع يدل علىٰ الحذف، وكما في قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٩] ... ففيه دلالة علىٰ العدم الذي خلق منه الإنسان، وقوله -تعالىٰ-: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

في الحذف دليل قاطع علىٰ عدالة الحق -سبحانه- كما سبق في ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ... ﴾ وفيها يقول البقاعي: "وحذف نون (يكن) إرشادًا إلىٰ أن هذه الموعظة خليقة بأن يوجد بها غاية الإيجاز، فيبادر إلىٰ إلقائها؛ لما في حسن تلقيها من عظيم المنفعة؛ لأن من خالفها جدير بتعجيل الانتقام"(١).

فالحذف هنا دليل التعجيل بالتوبة والرجوع إلىٰ الله -سبحانه- والثبات علىٰ الحق وقطع كل باطل...

وقد اجتمعا الحذف والذكر في آية واحدة، مسبوقة بتوجيهات ونصائح كثيرة، والبداية بحذف النون، والنهاية بذكرها، وذلك في قوله -تعالىٰ-: ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن

(١) نظم الدرر ج٣/ ٢٣١.

تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦].

أي مهما تكن صغيرة لا ترىٰ بالعين المجردة، فيكتمل اختفاؤها في أكبر الأماكن وأقساها وأوسعها ... يأت بها الله.

فكان الحذف في الأولىٰ (تك) مناسبًا لقوله (مثقال حبة من خردل) وفيه دليل علىٰ صغرها صغرًا يتناهىٰ حجمها به ... وهذا -بلا شك- يناسبه الحذف، ومع صغرها هذا لو كانت في صخرة صماء يصعب شقها، أو في السماوات علىٰ اتساعها، وتعدد طبقاتها أو في الأرض كذلك، بكل يسر وسهولة (يأت بها الله) وتذييل الآية يتآزر مع المعنىٰ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أي محيط بالدقائق وخبير بها ... ومع قوة إحاطته فهو لطيف، يقول ابن فارس: اللام والطاء والفاء أصل يدل علىٰ رفق، ويدل علىٰ صغر في الشيء ...[1].

فالسياق يدل علىٰ أن عظمة الله تتناهىٰ وتتعاظم، تتناهىٰ في القوة، وتتعاظم في الرفق.

بيّن الرازي أنه -سبحانه- ذكر كل طرق الخفاء، كالصغر، والبُعد، والظلمة، ووراء حجاب، فقوله: (إنها إن تك مثقال حبة) إشارة إلىٰ الصغر، وقوله (فتكن في صخرة) إشارة إلىٰ الحجاب، وقوله: (أو في السماوات) إشارة إلىٰ البعد، وقوله: (أو في الأرض) إشارة إلىٰ الظلمات، فإن جوف الأرض أظلم الأماكن، وقوله: (يأت بها الله) أبلغ من يعلمها الله ...[2]، فعلمها هنا أمر مقطوع به، وهو أيسر من

(١) مقاييس اللغة، لطف.

(٢) تفسيره باختصار ٢٥/ ١٣٠.

الإتيان بها، الذي هو دليل القدرة المتناسبة مع ما ختمت به الآية، فحذف النون في الأول (إن تك) دليل علىٰ دقتها حتىٰ لا تكاد تكون، وإثباتها في (فتكن) دليل علىٰ كمال القدرة وتمام أماكن اختفائها كما نص عليه الرازي.

ويقول البقاعي: (إن تك) وأسقط النون لغرض الإيجاز في الإيصاء بما ينيل المفاز، والدلالة علىٰ أقل الكون وأصغره ... وأثبت النون في (فتكن) إشارة إلىٰ ثباتها في مكانها، وليزداد تشوف النفس إلىٰ محط الفائدة، ويذهب الوهم كل مذهب؛ لما علم من أن المقصد عظيم بحذف تلك النون وإثبات هذه ..."[1].

والآن -من خلال الشواهد- حصص الحق بجمال دلالة السياق في كل مقام تحذف فيه النون ببيان حجم المتحدث عنه، ونفي الشك فيه، وقطع الظلم قطعًا، وبراعة العطاء الذي يرفع ما توسوس به النفس في الخير، أو في غيره، كما تُذكر النون لتدل علىٰ التوسع والعظم في فضل الله مثلًا، كما في قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٧٣].

فعند ذكر نعم الله بالفوز والنصر واكتمالها يكتمل الفعل لبيان أن من فاته الجهاد في سبيل الله فاته كل شيء ....

وقوله -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥]، في ذكر النون دلالة علىٰ اكتمال الدعوة بالحق، وعدم الانصراف عنه لحظة، واكتمال سمو نفس النبي -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- وعدم أخذ البريء بذنب الخائن ...

---

(١) نظم الدرر ٦/ ١٨.

وهكذا مع كل شواهدها ينبلج جمال الدلالة من عطاء السياق؛ ليعبر عن خوالج الشعور، ويضع كل لفظ في المكان الأخص الأشكل به؛ لتكون دلالة جماله جامعة بين مقصد السورة ونظم السياق.

جمال الدلالة بذكر الهمزة وحذفها بين السياق:

قد يكون السياق واحدًا في مكانين مختلفين، ويأتي التعبير مرة بطريق الخبر في اللفظ، وإن كان المعنىٰ إنشاء، وأخرىٰ بطريق الإنشاء لفظًا ومعنىٰ كقوله -تعالىٰ-: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٤].

وقوله -تعالىٰ-: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢].

بداية نلحظ أن الآية الأولىٰ لفظها خبر، والثانية لفظها إنشاء، وتختلف القراءة في ذلك، فقد قرأ "الحرميان وأبو جعفر وحفص: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ بهمزة مكسورة علىٰ الخبر، والباقون علىٰ الاستفهام ..."[1].

فطريق الإخبار في آية الأعراف ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ قائم علىٰ إثبات الأجر، واستحقاقه وإيجابه لهم، فهم لم يسألوا أجرًا، بل أخبروا باستحقاقهم إياه نظير عملهم، فالخبر هنا يفيد التأكيد، وقوله لهم ﴿نَعَمْ ﴾ تأكيد علىٰ تأكيد، ولذلك قال لهم ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ وهذه زيادة في تعظيم الأجر، الذي جاء متكررًا، لذلك قال الزمخشري: "وقرئ: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ علىٰ الإخبار وإثبات الأجر العظيم

(١) تحبير التيسير في القراءات العشر لابن الجزري، تحقيق: د. أحمد محمد مفلح، نشر دار الفرقان، الأردن، ط١، ٢٠٠٠م، ص٣٧٥.

وإيجابه، كأنهم قالوا: لا بد لنا من أجر، والتنكير للتعظيم، كقول العرب: إن له لإبلًا، وإن له لغنمًا، يقصدون الكثرة"(١).

ولكن البقاعي يقول: "ومن أخبر أراد الاستفهام، وهم نافع، وابن كثير، وحفص عن عاصم ﴿ قَالَ ﴾ أي فرعون ﴿ نَعَمْ ﴾ أي لكم أجر مؤكد الخبر به، وزاد بيان التأكيد بما زادهم به، رغبة في قولهم ﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ أي زيادة علىٰ ذلك ﴿ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي عندي في الحضرة"(٢).

فمجيء الكلام علىٰ لفظ الخبر أكد بيان حقهم نظير عملهم دون أن يكون طلبًا منهم، وإن أشرب معنىٰ الطلب، ورفع مكافأتهم بأن أعطاهم درجة القربىٰ والأولوية ... وكون طلبهم خبرًا لا طلبًا، يتناسب مع نسيج السورة، ففي سياقها العام ومقصودها الأعظم: الإنذار وذلك جلي من فاتحتها ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وجل آيها كذلك، إنذار، ووعيد سواء في خطاب الحق، أو في حوار إبليس لما قال: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ إلىٰ آخر الآيات، ثم الحوارات التي دارت بين الأنبياء وأقوامهم مبنية علىٰ ذلك حتىٰ يصل الموضوع إلىٰ السياق الخاص الذي ورد فيه هذا الشاهد، ودار الحوار بين موسىٰ وفرعون، وألقىٰ موسىٰ عصاه، ونزع يده ... وتجلت المعجزات التي جاء بها، هنا أخبر الملأ بأن هذا سحر، يحتاج إلىٰ دعوة جميع السحرة، ووجدوا العمل عظيمًا، والخطب جليلًا، فاشترطوا الأجر إن حصلت لهم الغلبة، فكان الكلام إخبارًا مخافة أن يكون جاء بهم هكذا دون أجر،

(١) الكشاف ٢/ ١٠٢.

(٢) نظم الدرر ٣/ ٨٢.

وفي النهاية غُلبوا وسجدوا، وآمنوا بالله رب العالمين، فكان جزاؤهم من فرعون الوعيد ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ... ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

والتعبير بلفظ الخبر، وإن جعل البعض المعنىٰ علىٰ الإنشاء يدل دلالة قاطعة علىٰ تأكيد الاستحقاق إن حدثت الغلبة، وجمال الدلالة في الأسلوب الخبري يحقق القوة والتأكيد عليها، ووثاقة النفس فيما تقدم عليه، ولذلك لما طلبوا الأجر قالوا ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ والتعبير بـ(نحن) يدل علىٰ الاختصاص وتعظيم النفس التي جعلتهم يطلبون الأجر بثبات يناسب ثبات فرعون، وطمأنينة تحاكي طمأنينتهم؛ لأن الأمر كان متروكًا للملأ، ولكنه في سورة الشعراء كان هو المتحدث، وهو الذي يستشير القوم ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء: ٣٤، ٣٥]. لذلك لما جاء السحرة سألوا ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾.

فالاستفهام هنا واضح لفظًا ومعنىٰ، والزيادة بادية في قوله "إذًا"، وأرجع الإسكافي الزيادة التي في الشعراء بذكر همزة الاستفهام، وزيادة "إذًا"، ومجيء الكلام بالفاء في البداية "فلما جاء السحرة ..." بخلاف الأعراف (وجاء السحرة) إلىٰ أن القصة في الشعراء فيها تفصيل أكثر، قال: "لما تقدم في سورة الشعراء ما شرحه أكثر، وما في سورة الأعراف أوجز وأخصر، كان قوله في الأعراف: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾، بمعنىٰ ما كان بإزائه في سورة الشعراء ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ فلم يحتج في جواب "لما" إلىٰ فاء ولا واو، وكذلك هنا في سورة الأعراف، لما قصد هذا المعنىٰ دل بحذف العاطف علىٰ هذا القصد، فكأنه قال: فلما جاء السحرة

فرعون قالوا أئن لنا لأجرا ...، واختص سورة الشعراء بـ "إذًا"؛ لأنها موضع بني علىٰ فضل اقتصاص لما جرىٰ لم يبن غيرها عليه من نحو ما تقدم وما يجيء بعد"(١).

نظرات توضيحية:

لم يقصد بكثرة الاقتصاص وطول الشرح في سورة الشعراء كثرة عدد الآيات أو طول الموضوع، فالموضوع في سورة الشعراء أقل في عدد الآيات منه في سورة الأعراف، وكل سورة من السورتين فيها مجموعة من القصص للأنبياء السابقين مع أقوامهم تثبيتًا وتسلية للنبي -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- ولم تتخلص واحدة منها لقصة موسىٰ مع فرعون، ولكن مقصود سورة الشعراء "أن هذا الكتاب بيّن في نفسه بإعجازه أنه من عند الله مبين لكل ملتبس"(٢)، وهذا المقصود ينعكس علىٰ كل أحداث السورة في المبنىٰ وفي المعنىٰ، وإن قل عدد الآيات، ولذلك زاد هنا في آية الشعراء همزة الاستفهام، وإن كان المعنىٰ عليه عند بعض العلماء كما سبق، إلا أنه حَذف الهمزة فصار الكلام خبرًا في اللفظ إنشاءً في المعنىٰ ... كما زاد "إذًا" هنا في آية الشعراء ...

ومكمن القوة في سورة الشعراء أن الله -عز وجل- هو الذي أمر موسىٰ بعد أن ناداه فقال -تعالىٰ-: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ... ﴾ [الشعراء: ١٠، ١١].

---

(١) درة التنزيل، ١٣١ بإيجاز.

(٢) مصاعد النظر للإشراف علىٰ مقاصد السور، ٢/ ٢٣٤.

ولكنه في الأعراف هو الذي تكلم من تلقاء نفسه تفعيلًا لرسالته التي بعثه الله بها: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤].

وحذفه في القوة والزيادة بيّن أن يكون السياق تفعيلًا للرسالة التي بعث بها، وبيّن أن يكون نداء بصريح اللفظ (نادىٰ) وأمرًا بالإتيان، فهنا مكمن قوة الحدث في سورة الشعراء، وهذا يتناسب معه أن يتحدث فرعون بنفسه ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤]، بخلافه هنا ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، وفي الأعراف: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ [١١٣]، وفي الشعراء: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ [٣٨، ٣٩]، فقوة الاستعداد في أحداث سورة الشعراء بادية جليّة تتناسب مع بداية الحدث الذي سبق، من أن يتحدث موسىٰ، أو ينادي ربك موسىٰ أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ... فهنا قوة الاقتصاص التي ذكرها الإسكافي، وطول الشرح، ظاهره في حبكتها حتىٰ قال فرعون لقومه متهمًا موسىٰ بالسحر ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، والفروق بين الحدث في السورتين كثيرة، ولكنه تجلّت دلالة قوة زيادة همزة الاستفهام هنا في سورة الشعراء من قوة الحدث، وأن البداية بنداء وأمر من الله -عز وجل-، وأن أحداث النهاية في الشعراء إغراق فرعون وقومه ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٥، ٦٦].

ولكن كانت النهاية في الأعراف ابتلاءات تسبق النهايات تتمثل في أخذ آل فرعون بالسنين ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [١٣٠] ... ثم إرسال الطوفان والجراد والقمل والضفادع، ثم حوارهم مع موسىٰ بأن يدعو الله لهم، ثم نقضهم العهد، ثم النهاية بعد طول بلاء

﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

فالسياق في الأعراف أطول وفرصة التوبة أكبر، ولكنه كان في الشعراء مرحلة ثانية فيها تأهب للقضاء عليهم بعد توضيح ما كان ملتبسًا عليهم مما جعل فرعون يتهم موسىٰ بالجنون، وذلك يتناسب مع المقصود الأعظم للسورة كما تبيّن.

جمال الدلالة في حذف همزة الاستفهام وبقاء معناها:

وقد يكون اللفظ مشربًا معنىٰ الاستفهام، وليس فيه لفظه، ولكنه يفيد ملمحًا بلاغيًا قد يكون في الاستهانة، والاستخفاف الذي يعظم في التعبير بحذف الاستفهام وبقاء معناه أكثر مما يعظم بذكر لفظه، فبالحذف تعظم الاستهانة، وتقوىٰ الحجة، ومن ذلك حوار سيدنا إبراهيم -عليه السلام- مع قومه، وهم يحاجونه في الله، فأقام عليهم الحجة، وألجمهم بها بصورة مرئية تدحض افتراءهم، وتدل علىٰ يقينه ووثاقته في الله ربه.

قال -تعالىٰ-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥، ٧٦].

ومن خصائص همزة الاستفهام أنها تحذف ويبقىٰ معناها، وأي حذف لا بد له من دليل لفظي أو معنوي ... والسياق هنا يدل علىٰ معنىٰ الاستفهام، والوقف علىٰ قوله (هذا ربي) يؤدي معنىٰ الاستفهام، ولا يمكن أن يكون علىٰ طريق الخبر؛ لأن سيدنا إبراهيم -عليه السلام- كان حنيفًا مسلمًا، ومن ثم فطريق الاستفهام الإنكاري أخلق بالسياق إلا أنه أسقط حرف الاستفهام؛ أي أهذا ربي؟ استغناء عنه لدلالة الكلام عليه، وقد جاء هذا القول في سياق الاستدلال علىٰ قدرة الله عز وجل.

ولكن مجيء التعبير بهذه الطريقة؛ أي علىٰ لفظ الخبر وراءه دلائل يجليها المقام، يقول فيها الزمخشري: (هذا ربي) قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه؛ لأن ذلك أدعىٰ إلىٰ الحق وأنجىٰ من الشغب، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة (لا أحب الآفلين)[1].

ويتكرر هذا مع القمر، ومع الشمس كذلك، وكله باسم الإشارة (هذا) فهو وسيلة إقناع بأن هذا لا يصلح، وكذا الثاني، وكذا الثالث، وذلك كله كناية عما يعبد من دون الله، وهذه طريقة بليغة في إثبات الباطل، والوصول بهم إلىٰ الحق بطريقة المسايرة معهم لإقناعهم بالحجة والدليل الواضح ...

يقول البقاعي: فكأنه من بَصْره أن أتىٰ بهذا الكلام الصالح لأن يكون خبرًا واستفهامًا ليوهم أنه مخبر، فيكون ذلك أنفىٰ للغرض، وأنجىٰ من الشغب، فيكون أشد استجلابًا لهم إلىٰ إنعام النظر، وتنبيهًا علىٰ موضع الغلط وقبول الحجة ... واستدل بالأفول؛ لأن دلالته لزوال سلطانه وحقارة شأنه أتم، ولم يستدل بالطلوع؛ لأنه -وإن كان حركة دالة علىٰ الحدوث والنقصان- شرف في الجملة وسلطان، فالخواص يفهمون من الأفول الإمكان، والممكن لابد له من موجد واجب الوجود، يكون منتهىٰ الآمال ومحط الرحال" وأن إلىٰ ربك المنتهىٰ"[النجم٤٢] والأوساط يفهمون منه الحدوث للحركة، والعوام يفهمون أن الغارب كالمعزول لزوال نوره وسلطانه، وأن ما كان كذلك لا يصلح للإلهية"[2].

فهذه طريقة الحجاج تتجلىٰ بلاغتها في إلجام الخصم بالحجة، ومن ثم لم يأت التعبير بأسلوب الاستفهام المباشر؛ لأنه "قاله علىٰ سبيل الفرض جريًا علىٰ معتقد

(١) الكشاف، ٢/ ٣١.

(٢) نظم الدرر ٢/ ٦٥٩ بإيجاز، وينظر: الكشاف ٢/ ٣١.

قومه؛ ليصل بهم إلىٰ نقض اعتقادهم، فأظهر أنه موافق لهم؛ ليهشوا إلىٰ ذلك، ثم يكر عليهم بالإبطال؛ إظهارًا للإنصاف وطلب الحق"[1]، وتلك طريقة من طرف الوصول إلىٰ الحق بطريق الإقناع، وليس فيها أدنىٰ شبهة في الموافقة علىٰ معتقدهم، وقد حكىٰ عنه القرآن الكريم قبلها ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾.[الأنعام٧٥]

وهذا التعبير الذي قاله سيدنا إبراهيم -عليه السلام- احتجاجًا علىٰ قومه بالجري علىٰ طريقهم للوصول إلىٰ بغيته، تعبير فريد، وموقف لم يتكرر في القرآن كله ..

وجمال الدلالة يتجلىٰ في براعة التعبير بالوصول إلىٰ الغرض وإلجام الخصم بالحجة، والوقوف علىٰ موضع الخطأ دون إظهار التعارض، أو التعصب.

جمال دلالة الاستفهام المضمر في سياق التشبيه المنفي:

يتجلىٰ ذلك في بيان قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ [النحل: ٩٢].

فهذا السياق فيه فرائد لم تتكرر في غيره من القرآن الكريم، تتمثل في صدر الآية، وهو التشبيه المنفي في قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا ﴾ فهذا نهي عن مماثلة من هذا حاله جنسًا وصفة، وهو نهي يجمع بين الصفة ومقتضاها الذي هو اتخاذ الأيمان دخلًا بينكم؛ أي مفسدة وخداعًا ... ابتغاء الكثرة في المال.

(١) الكشاف ٢/ ٣١.

وجملة التشبيه هذه استوفت المراد (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) المعنىٰ هنا تمّ بالنهي عن مماثلة من هذا حاله، كما سبق نهيًا عن التلاعب بالأيمان، ويكون قوله : ﴿نَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي بسبب أن تكون أمة أكثر من غيرها قوة وعددًا زيادة في النهي علىٰ سبيل الإنكار، وفيه يقول فخر الدين الرازي: "فقوله ﴿نَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ استفهام علىٰ سبيل الإنكار، والمعنىٰ: أتتخذون أيمانكم دخلا بينكم بسبب أن أمة هي أزيد في القوة والكثرة من أمة أخرىٰ"(١)، فكونه استفهامًا إنكاريًا أشد توافقًا مع جمال دلالة المعنىٰ والسياق، وهو ما يوافقه السياق قبلها وبعدها ...

وكثير من العلماء يجعل ﴿نَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ حالًا من الضمير في ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أو في الجار والمجرور الواقع موقع الخبر، أو حال كونكم تتخذون عهودكم دخلا بينكم ...(٢)، أي لا تكونوا كالتي نقضت غزلها حال عدم وفائكم بما عاهدتم عليه ...

وقفة تأمل:

هذا موقف العلماء، ولكن عند التدبر نجد تمام المعنىٰ في نفي التشبيه عند قوله ﴿أَنكَاثًا﴾ وأن جملة ﴿نَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ كلام جديد متآزر مع هذا النهي، وينكر عليهم أن تكون أيمانهم قائمة علىٰ الغش، والخداع فتفسد، وهذا يتناسب مع الأمر السابق بالوفاء بالعهد، والتحذير من نقض الأيمان بعد توكيدها، وذلك في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَٰنَ بَعْدَ

(١) تفسيره ٢٠/ ١١١

(٢) ينظر: روح المعاني للألوسي، ج١٤/ ٢٢٢.

﴿تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١]، وهي الآية السابقة لموطن الشاهد، فكأن قوله "أتتخذون ..." عتاب علىٰ صنيعهم، وإنكار لهم عليه، وخاصة أنه نهاهم عن التشبه بالحمقاء التي تغزل الصوف بقوة، ثم تنقضه بعد غزله، فكذلك هم وثقوا أيمانهم وجعلوا الله كفيلًا عليهم، ثم نقضوها، فكان هذا الإنكار الذي تحمله صورة اللفظ بعد حذف الهمزة منه -ليكون الإنكار أقوىٰ- تماشيًا مع وثاقتهم الأيمان بأنفسهم، ونقضها سرًا، فحذف الهمزة يحكي حالتهم، ولذلك جعلها بعض العلماء حالًا، إلا أن الاستفهام فيها أقوىٰ مناسبة للسياق، وخاصة ما قبل هذه الآية، وتحقيقًا لما حكاه السياق بعدها بفاصل آية واحدة ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٩٤].

وبناء علىٰ ذلك فإن التشبيه المنفي تمّ، وجملة ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ بعده استفهام إنكاري أي لا تفعلوا ذلك، يؤكد تمام المعنىٰ السابق، وجمال الدلالة والسياق يؤكد تمام المعنىٰ قبلها، واستئناف النهي بعدها، والتحذير من نقض عهدهم مع الرسول -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- بعد ذلك في المبايعة.

جمال دلالة حذف الهمزة في مقام الغرور:

ومن شواهد هذا الباب قوله -تعالىٰ- حكاية عن طاعة الملائكة وعصيان إبليس ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦١، ٦٢].

أيضًا هذا النص فيه فرائد لم تتكرر في القرآن الكريم كله، هي قوله ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ وقوله ﴿كَرَّمْتَ﴾ وقوله ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾، والشاهد في هذا السياق قوله "هذا الذي كرمت عليّ" تقدير الكلام: أهذا ... حذفت همزة الاستفهام لدلالة سابق الكلام عليها، وهذا يعني أن قول إبليس تكرر علىٰ طريق الاستفهام مرتين، الأولىٰ ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾؟ والثاني ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ كأنه يطلب الإجابة عن سؤاله الأول: أأسجد لمن خلقت طينًا؟ يعني أخبرني عن هذا الذي كرمته عليّ وأمرتني بالسجود له، فلمّا لم يخبره ربنا استصغارًا لأمره واحتقارًا لشأنه ... قال: هذا الذي كرّمت عليّ؟ يعني أهذا؟

وفيه يقول الرازي: فيه وجوه:

الأول: معناه: أخبرني عن هذا الذي فضلته عليّ، لمَ فضلته عليّ وأنا خير منه؟ ثم اختصر الكلام لكونه مفهومًا.

والثاني: يمكن أن يقال: هذا مبتدأ محذوف منه حرف الاستفهام، والذي مع صلته خبر، تقديره: أخبرني أن هذا الذي كرمته عليّ، وذلك علىٰ وجه الاستصغار، والاستحقار، وإنما حذف حرف الاستفهام؛ لأن حصوله في قوله ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ أغنىٰ عن تكراره.

والوجه الثالث: أن يكون (هذا) مفعول (أرأيت) لأن الكاف جاءت لمجرد الخطاب لا محل لها، كأنه قال علىٰ وجه التعجب والإنكار: أبصرت؟ أو علمت؟ هذا الذي كرمت عليّ، بمعنىٰ لو أبصرته أو علمته لكان يجب ألا تكرّمه عليّ"[1].

هذا بيان يغني عن كل بيان، وجمال الدلالة فيه يتجلىٰ في بلوغ التأكيد مبلغًا عاليًا في تكرار الاستفهام ثلاث مرات، ظاهرًا مرتين، ومضمرًا في الثالثة؛ لدلالة ما سبق عليه، وهذا التكرار يدل علىٰ التعالي، والتكبر علىٰ أمر الله، استهانة بآدم؛ لأنه من طين، وإبليس من نار، ومن منظوره أنه أفضل شأنا وأكرم أصلًا، "لأن النار التي هي أصله أكرم من الطين، وذهب عليه إن الطين أنفع من النار فهو أكرم، وعلىٰ تقدير التنزل فإن الجواهر كلها من جنس واحد، والله -تعالىٰ- الذي أوجدها من العدم بفضل بعضها علىٰ بعض بما يحدث فيها من الأعراض"[2].

ثم هناك زيادة أخرىٰ غير هذه الاستفهامات، وهي زيادة الكاف في قوله ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ وفيها تبجح في مخاطبة الحق -سبحانه-، "قال البصريون: هذه الكاف زائدة زيدت لمعنىٰ المخاطبة ... وقال سيبويه: لا موضع لها، وقال السكاكي: موضعها نصب، وقال الفراء: رفع، ولها موضعان، أحدهما: أن تكون بمعنىٰ أخبرني ... والثاني أن تكون بمعنىٰ انتبه، كقولك: أرأيت زيدًا فإني أحبه، أي انتبه له فإني أحبه ... وقد يحذف الجواب للعلم به ..."[3].

---

(١) تفسيره، ٢١/ ٤، ٥.

(٢) نظم الدرر، ٤/ ٤٠٢.

(٣) البرهان للزركشي ٤/ ١٥٣ بإيجاز.

والمعنيان في أرأيتك محتملان من إبليس (لعنه الله) لأنه تجرأ علىٰ الله -عز وجل- وقد تجلىٰ هذا التجرؤ في قوله عقب ذلك بطريق التوعد والتحدي: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ... ﴾ إلىٰ أن قال ربنا: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾.[الإسراء ٦٥]

فهذا قسَم منه بالاستئصال الدال عليه التعبير بقوله (لأحتنكن) ولكنه استثنىٰ (إلا قليلا) وهذا دليل علىٰ خبرته بحياة بني آدم، فمنهم من لا يطيعه وهم القلة الشاكرة لله رب العالمين، كما قال ربنا ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

و﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص: ٢٤]، والكثير يطيعه، والدليل جلي في الاستفهامات السابقة منه، وأعلاها بلاغة ما حذفت همزته ودل السياق والمقام عليها "﴿ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾؟ وهذا من الترقي في بناء الأسلوب الذي تتجلىٰ دلالته في الغرور والتكبر؛ حيث استنكر السجود، واستكبر علىٰ اعتبار أصله، وأصل آدم﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾؟

ثم زاد هذا الإنكار قوة في المعارضة بقوله ﴿أَرَءَيْتَكَ ﴾ ؟ وكأنه يطلب جوابًا عن استنكاره، فلما لم يجبه ربنا استصغارًا لشأنه قال: "هذا الذي كرمت علي"؟، مبالغة أخرىٰ في الإنكار قدمت لهذا التحدي السافر،﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ ﴾

وهكذا يتآزر السياق بمبناه ومعناه في إبراز جمال الدلالة واستيلائها علىٰ النص كله..

جمال دلالة حذف الهمزة في مقام الخصوص وإرادة العموم:

ومن فرائد هذا الباب التي تجلت في كتاب الله قوله -تعالىٰ-: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾ [النساء: ٧٩].

هذا التركيب بشقيه الحسنة، والسيئة لم يرد بصورته هذه إلا في هذه الآية، والآية بكاملها توضيح لموقفهم في الآية قبلها؛ حيث كانوا يتطيرون بالنبي -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- إذا حدث أمر سيئ، وذلك قوله -تعالىٰ- حكاية عنهم: ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴾ [النساء: ٧٨].

فلما قالوا (هذه من عندك) تطيّرًا، كان الرد عليهم مبينًا أن الخير من الله، بأن أعان عليه، وأن السيئة بسبب النفس حتىٰ لو كانت من رسول الله، وهذا المعنىٰ هو الذي جعل بعض العلماء يحمله علىٰ سبيل الاستفهام (فمن نفسك) أي أفمن نفسك؟ ليس إنكارًا علىٰ الرسول -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-، بل إنكارًا عليهم تطيرهم من رسول الله حيث يصبهم سوء أو بلاء ...

وجعْلُه علىٰ سبيل الإنكار يؤكد سببية النفس له، ويتجلىٰ جمال الدلالة في هذا النص في إنكار تطيرهم، وتقرير الرسول-صلىٰ الله عليه وسلم- بأن ما يصيب الإنسان من سوء إنما هو بسببه، وحذف ألف الاستفهام، حيث لم يقل أفمن نفسك؟ تتجلىٰ بلاغته في قوة المعنىٰ من جانب، وفي أن تذهب النفس في تقديره كل مذهب من جانب آخر؛ نفيًا لهذا التطير، وإقرارًا بحال النفس التي وصفها ربنا بقوله -سبحانه-: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف:٥٣].

وذكر الفخر الرازي أن أبا عليّ الجبائي وفق بين نسبة السيئة في الآية قبلها إلىٰ الله في قوله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، وإضافتها إلىٰ النفس هنا بقوله: "ولما كانت السيئة بمعنىٰ البلاء والشدة مضافة إلىٰ الله، وجب أن تكون السيئة بمعنىٰ المعصية مضافة إلىٰ العبد حتىٰ يزوال التناقض بين هاتين الآيتين المتجاورتين، قال: وقد حمل المخالفون أنفسهم علىٰ تغيير الآية، وقرءوا (فمن تعسك) فغيروا القرآن وسلكوا مثل طريقة الرافضة في ادعاء التغيير في القرآن.

وأضاف الرازي توضيحًا لكلام الجبائي بأن الحسنة أضيفت إلىٰ الله هنا؛ لأنها وإن كانت من فعل العبد فإنما وصل إليها بتسهيله -تعالىٰ-وألطافه، فصحت الإضافة إلىٰ الله -تعالىٰ-وأما السيئة التي هي فعل العبد فهي غير مضافة إلىٰ الله -تعالىٰ-، لا بأنه -تعالىٰ-فعلها، ولا بأنه أرادها، ولا أمر بها، ولا رغب فيها، فلا جرم انقطعت هذه السيئة من جميع الوجوه إلىٰ الله -تعالىٰ-..[1].

وبين أبو حيان أن ألف الاستفهام محذوفة من الكلام؛ كقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ [الشعراء: ٢٢]، وكذا بازغًا، قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٧]، والعرب تحذف ألف الاستفهام، قال أبو خراش:

رموني وقالوا يا خويلد لم تدع ... فقلت وأنكرت الوجوه هم هم؟

أي: أهم هم؟[2].

وذكر الجبائي عن قتادة أن الخطاب هنا عام لكل من يقف عليه، لا للنبي -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- كقوله:

---

(١) تفسيره، ١٠/ ١٩٥ باختصار وتصرف.

(٢) البحر المحيط ٣/ ٧٢٠.

إذا أنـــت أكرمـــت الكـــريم ملكتـــه وإن أنـــت أكرمـــت اللئـــيم تمـــردا

ويدخل فيه المذكورون دخولًا أوليّا، وفي إجراء الكلام أولًا علىٰ لسان النبي صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-، وسوق البيان من جهته -تعالىٰ- ثانيًا بطريق تلوين الخطاب، والالتفات إيذان بمزيد الاعتناء به، والاهتمام برد اعتقادهم الباطل، وزعمهم الفاسد، والإشعار بأن مضمونه مبني علىٰ حكمة دقيقة حرية بأن يتولىٰ بيانها علام الغيوب -عز وجل- ...."[1].

ومعلوم أي خطاب في القرآن الكريم موجه للرسول -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- في أمور تنطبق علىٰ كل من أُرسل إليهم، إنما هو من الخاص الذي يراد به العام، جريًا علىٰ كلام العرب، وهو جلي في أنه -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- مبلغ للناس كافة عن الله -عز وجل- وأن ما وجه إليه من خطاب كهذا فيه بيان أن هذا إن كان للنبي فهو من باب أولىٰ لجميع من تصل إليهم رسالته -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-.

أما الشاهد الذي استدل به أبو حيان وهو يوضح مكانة الاستفهام المحذوف الأداة في الشاهد السابق، فيجري علىٰ هذه الوتيرة من التفرد، ومن حذف أداة الاستفهام مع وجود معناها.

(١) روح المعاني ٣/ ٨٦.

جمال دلالة حذف همزة الاستفهام في مقام التبكيت:

وهو قوله -تعالىٰ-حكاية عن سيدنا إبراهيم -عليه السلام- يحاور فرعون: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٢٢].

فقوله: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ ﴾ وقوله: ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ ﴾ من التراكيب الفريدة في القرآن الكريم.

ويقول الأخفش: هذا استفهام، كأنه قال: "أوتلك نعمة تمنها"؟، ثم فسّر فقال: ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ، وجعله بدلًا من النعمة(١).

قال الفراء نفس الكلام، وبدأ أبو حيان بيان الاستفهام هنا بكلامهما فقال: "وقال الأخفش والفراء: قبل الواو همزة استفهام يراد به الإنكار، وحذفت لدلالة المعنىٰ عليها، ورده النحاس بأنها لا تحذف؛ لأنها حرف يحدث معها معنىٰ، إلا إن كان في الكلام "أم" لا خلاف في ذلك إلا شيئًا، قاله الفراء من أنه يجوز حذفها مع أفعال الشك ... وقال الضحاك: الكلام إذا خرج مخرج التبكيت يكون باستفهام وبغير استفهام، والمعنىٰ: لو لمْ يقتِّل بني إسرائيل لرباني أبواي، فأي نعمة لك عليّ، فأنت تمنّ عليّ بما لا يجب أن تمن به ..."(٢).

ومن خصائص الهمزة أنها تدخل علىٰ حروف العطف، وتتميز بهذا من غيرها من أدوات الاستفهام الأخرىٰ نحو قوله -تعالىٰ-: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [الروم: ٩]، وتدخل علىٰ الفاء كقوله -

(١) معاني القرآن، ٣/ ١٧.

(٢) البحر المحيط، ٨/ ١٤٨.

تعالىٰ-: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ [يوسف: ١٠٩]، وعلىٰ ثم نحو قوله -تعالىٰ-: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ [يونس: ٥١].

وحذفها في السياق الذي نتحدث فيه من حوار موسىٰ مع فرعون أقوىٰ دلالة علىٰ المراد من ذكرها؛ ولأن الحذف هنا فيه دلالة قوية علىٰ أن ما يقوله فرعون من المنّ والمعايرة يجب أن يحذف، وأنه لا معنىٰ له؛ لأن السبب فيه هو فرعون نفسه، وهذا أنسب مع مفاد الاستفهام من التبكيت والتوبيخ، واستنكار ما يقال؛ لإظهار ظلم فرعون، والتعبير عن صغاره وهوانه حينئذٍ؛ فلا يقول هذا جبار إلا وقد أصيب بالذلة والهوان، فبدأ يستخرج ما عنده مما يجده نعمة منه ... وموسىٰ في حال قوته وسلطانه المستمد من الحق -سبحانه- يبطل ما يقول فرعون، ويجلي ذلك بقوله: أن عبّدتّ بني إسرائيل ... أي اتخذتهم عبيدًا، يقول الخازن في المراد من الكلام: "كيف تمنّ عليّ بالتربية، وقد استعبدت قومي، ومن أهين قومه فقد ذل، فتعبّد بني إسرائيل قد أحبط حسناتك إليّ، ولو لم تستعبدهم ولم تقتّل أولادهم، لم أُرفع إليك ... ولكان من أهلي من يربيني، ولم يلقوني في اليم"(١).

أي أنه ينكر عليه ذلك، وعليه فجملة ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ بدل من ﴿نِعْمَةٌ﴾ لأنها موضحة لها .. أو عطف بيان، يقول أبو السعود: "تلك" إشارة إلىٰ خصلة شنعاء مبهمة، وأن عبدت عطف بيان لها، والمعنىٰ: تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها عليّ، وتوحيد الخطاب في "تمنها" وجمعه فيما قبله (أي قوله: ففررت منكم لما خفتكم ..) لأن المنّة منه خاصة، والفرار منه ومن ملإه"(٢).

(١) تفسيره تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤١٥هـ، ٣/ ٣٣٣.

(٢) تفسيره ٥/ ١٣٣، وسبق به الزمخشري كما نسبه إليه الرازي في تفسيره، ٢٤/ ٤٩٧.

وبعض العلماء جعل الاستفهام علىٰ المن أي أتمنّها؟ يقول الطبري: "حدثنا الحسن، قال: أخبرنا عبد الرازق، قال: أخبرنا مَعْمَر عن قتادة في قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ ، قال: يقول موسىٰ لفرعون: أتمنّ عليّ أن اتخذت أنت بني إسرائيل عبيدًا؟.

واختلف أهل العربية في ذلك، فقال بعض نحويّ البصرة: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ ، فيقال: هذا استفهام كأنه قال: أتمنها عليّ، ثم فسّر فقال: "أن عبّدت بني إسرائيل"، وجعله بدلًا من النعمة"[1].

وإن كان يجوز هذا، بمعنىٰ أنه يستنكر عليه المن، إلا أن الأقوىٰ دخول الهمزة علىٰ حروف العطف كما هو كثير في القرآن الكريم، وفيه دلالة استنكار ما يراه فرعون كبيرًا وعظيمًا، لأن (تلك) اسم إشارة للبعيد، والبعد هنا بُعد مكانة علىٰ حد ما يراه فرعون، ويستنكره موسىٰ -عليه السلام- ففي هذا إنكار الكلام الذي يراه فرعون نعمة، واقتلاعه من أصله، بخلاف إنكار المن فيه كأنه يعترف بالنعمة، وينكر المن فقط، وهذا ضعيف كما تبيّن.

(١) تفسيره ١٧/ ٥٦١.

دلالة حذف همزة الاستفهام على نفي البقاء:

بناء الكلام علىٰ طريق الخبر والمراد النفي أَثْبَتُ في النفوس، وأَمْكن من جعله استفهاما مباشرا؛ لأن جعله خبرا دليل علىٰ أنه كائن وواقع، وليس إنشاء حكم جديد، وكان القوم ينتظرون موت الرسول -صلىٰ الله عليه وسلم- ليشمتوا، فثبته الله-عزو وجل- وبين حكم الفناء المقضي به من عنده، ومجيء اللفظ بطريق الخبر، والمعنىٰ إنشاء فيه هدم لفكر القوم، وزلزلة لبنيان استقر في نفوسهم، وذلك قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

أيضًا هو تركيب فريد في الذكر الحكيم، والتقدير أفهم الخالدون إن مت؟ أيستقيم هذا؟ فهو استفهام إنكار، وقال الفراء: جاء بالفاء ليدل علىٰ الشرط ... ويجوز أن يكون جيء بها لأن التقدير فيها: أفهم الخالدون إن متَّ؟ ... هذا وجه، والوجه الآخر: أن تريد الفاء فتضمرها؛ لأنها لا تغير (هم) عن رفعها، فهناك يصلح الإضمار(١).

وحذف همزة الاستفهام هنا أيضًا تتجلىٰ دلالته في انقطاع الحياة عن كل أحد، وإن كان ذكرها يؤدي ذلك المعنىٰ، إلا أن الحذف أحكم وأفصح، ولذلك جاء عليه هذا القول الكريم وأمثاله.

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي وآخران، الدار المصرية للتأليف، ٢/ ١٩٧.

وذكر البقاعي أن المنكر هو تقدير خلودهم علىٰ تقدير موته الموجب لإنكار تمنيهم لموته، فحق الهمزة دخولها علىٰ الجزاء، وهو: فهم، وإنما قارنت الشرط لأن الاستفهام له الصدر"[1].

وهذا القول بالموجب الذي ذكره، شرحه ابن عاشور بقوله: أي أنك تموت كما قالوا، ولكنهم لا يرون ذلك، وهم بحال من يزعمون أنهم مخلدون، فأيقنوا أنهم يتربصون بك ريب المنون من فرط غرورهم، فالتفريع كان علىٰ ما في الجملة الأولىٰ من القول بالموجب، أي ما هم بخالدين حتىٰ يوقنوا أنهم يرون موتك، وفي الإنكار الذي هو في معنىٰ النفي إنذار لهم بأنهم لا يرىٰ موته منهم أحد"[2].

والقول بالموجب هو الذي حده البلاغيون بأنه: إثبات صفة لشيء وترتيب حكم عليها، فينتقل السامع تلك الصفة إلىٰ غير ذلك الشيء من غير تعرض لثبوت ذلك الحكم له أو انتفائه عنه[3].

ويساعد علىٰ إحكام هذا المعنىٰ: حذف همزة الاستفهام من ﴿ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾؛ لأنه أثبت الموت لهم من غير تعرض بذكره لا نفيًا ولا إثباتًا من نقل صفة الموت إليهم، وحذف الهمزة أحكم هذا المعنىٰ، وأنكر عليهم ما يجري في نفوسهم من انتظار موته ليشمتوا فيه ... وهذا مناسب لمقصود السورة الأعظم الذي

(١) نظم الدرر، ج٥/ ٨٢.

(٢) التحرير والتنوير ١٧/ ٦٣.

(٣) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة ٣٥٢

هو: "الاستدلال علىٰ تحقق الساعة، وقربها ولو بالموت، ووقوع الحساب فيها علىٰ الجليل والحقير"(١).

وهكذا تجلت دلالة الحذف في إثبات ما هو واقع لا محالة ... وكل هذه الشواهد التي وقفت عندها من هذا الباب عبارات فريدة لم تنكر، وهذا من باب قوة الجمال التي دل عليها السياق العام، والنص الخاص في مكانها ومقامها.

دلالة حذف همزة الاستفهام في مقام الاستعظام:

ومن هذه الشواهد الفريدة، أي التي لم يذكر التعبير محل الشاهد في غيرها أيضًا: قوله -تعالىٰ-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

موطن الشاهد في قوله -تعالىٰ-: ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ تقديره: أمنه تنفقون؟ لأن المقصود من النهي تم بيانه في العبارة السابقة لذلك: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ﴾ حيث تم عندها بناء المعنىٰ؛ أي لا تقصدوه وتجعلوا منه ما تنفقونه.

ثم يأتي هذا السؤال الذي يقرر المعنىٰ ويؤكده، ويوقظ النفس من حب الدنيا، ومخالفة أمور الدين، فيقول: (منه تنفقون)؛ أي أمنه تنفقون؟، وحذف الهمزة أعطىٰ الإنكار المطلوب قوة، وأعطىٰ التحذير مهابة؛ لأن حذفها يدل علىٰ عدم فعله.

(١) مصاعد النظر ٢/ ٢٨٥.

وذكر أبو حيان أن الجملة بشقيها مؤكدة للأمر؛ لأن مفهومها جلي في قوله ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾[1]، وذكر أبو السعود أن تقديم الجار ﴿مِنْهُ﴾ علىٰ ﴿تُنفِقُونَ﴾ يفيد التخصيص، والجملة حال من فاعل تيمموا؛ أي لا تقصدوا الخبيث قاصرين الإنفاق عليه ..

وأيما كان فالتخصيص لتوبيخهم ... فهو كلام مستأنف توبيخًا وتقريعًا لهم[2].

وبناء علىٰ ذلك فيترجح أن جملة ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ مستأنفة، ويتجلىٰ جمال الدلالة علىٰ التوبيخ والإنكار فيها علىٰ تقدير الاستفهام بحذف همزته تعضيدًا للمعنىٰ المطلوب إثباته، وهو عدم قصد الخبيث للإنفاق منه، ولستم بآخذيه إلا مع التغاضي، لو كنتم مكان هؤلاء، وفيه ردع وتهذيب، وحث علىٰ الالتزام بالأمر السابق: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [سورة البقرة:٢٦٧].

وهكذا تجلىٰ مما سبق دلالة الكلمة، وتجلىٰ جمالها، من خلال فهم السياق، وبيان ما فيه من علائق يبرزها جمال نظمه، وسياق لفظه الذي يعبر عن جمال المعنىٰ، وبلاغة التعبير، والكلمة لها دور عظيم في هذا البناء، ولكنها بمفردها لا تقوم بشيء من ذلك؛ لذلك درستها بين سياقها رابطًا بين السياق العام، والنص الخاص الذي جاءت فيه، مبرزًا مقامها، وعلاقة دلالتها بالمقصود العام للسورة، وسيتم فيما يأتي تطبيق ذلك علىٰ الجملة، والجمل التي تآزرت معها في جمال الدلالة باعتبار الأحوال والمقامات.

(١) ينظر: البحر المحيط، ٢/ ٣١٥.

(٢) تفسيره، باختصار وتصرف، ١/ ٣٦١.

خاتمة

من خلال هذا العمل تبين أن: حرف البناء أساس في الكلمة فحين يذكر تكون له دلالة تطابق سياقه ومقامه، وحين يحذف تكون له دلالة أخرىٰ تتناسب مع السياق والمقام أيضا، فحين يذكر حرف البناء يصور حدثا زائدا، وحين يحذف يصور حالة في هذا الحدث، وجمال الدلالة فيه عموم وخصوص، فالخصوص بمن نزلت فيهم الآية، والعموم لمن كان علىٰ هذه الشاكلة، وهذا وذاك يتوافق مع السياق كله، والبلاغة لا تدرس إلا كذلك، ولا يفهم مرادها إلا بذلك، والشواهد ناطقة به وخير دليل عليه، فمثلا ﴿ وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ آل عمران: ١٠٣ بتاء واحدة كان لأمة واحدة، و(لاتتفرقوا) في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣ ﴾ الشورىٰ: ١٣، كان لمجموعة الأمم التي أوصاها الله بإقامة دينه، والابتعاد عن التفرق، وكذا قوله تعالىٰ(ولاتتبدلوا) في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ ﴾ النساء: ٢، و(يوم تبدل) في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ٤٨ ﴾ إبراهيم: ٤٨، الأولىٰ تحذير شديد وزيادة التاء تناسب ذلك، والثانية تحديد دون زيادة أرض تغاير أرضا، والأرض الجديدة في علم الغيب لا نستطيع أن نتحدث عنها، وهكذا يبين البحث أسباب الزيادة وأسباب الحذف باعتبار السياق والمقام ومقصد السورة التي جاء فيها الشاهد مذكورا، أو محذوفا. ومن ثم تجلت النتائج باعتبار الشواهد.

والله من وراء القصد

ثبت المصادر والمراجع

أسباب نزول القرآن (الواحدي) - رواية الأرغياني (ت الفحل)، علي بن أحمد الواحدي النيسابوي أبو الحسن، تح: ماهر ياسين الفحل، دار الميمان، سنة النشر: ١٤٢٦ - ٢٠٠٥

أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، للإمام عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني بجده.

أسرار التكرار في القرآن، تحقيق: عبد القادر عطا، دار الاعتصام بالقاهرة، ط٢، ١٣٩٦.

إعراب القرآن للنحاس، علق علىٰ حواشيه: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ

الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع مختصر تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، مكتبة محمد علي صبيح، ميدان الأزهر بمصر.

الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (ت ٧٣٩هـ)، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل - بيروت، الطبعة: الثالثة .

البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تح:صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت

البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تح:محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسىٰ البابىٰ الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولىٰ، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م

البيان والتبيين ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفىٰ: ٢٥٥هـ) ، دار ومكتبة الهلال، بيروت ، ١٤٢٣ هـ

التبيان في إعراب القرآن للعكبري، تحقيق: محمد علي البجاوي، طبعة الحلبي،ط: عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه.

تحبير التيسير في القراءات العشر لابن الجزري، تحقيق: د. أحمد محمد مفلح، نشر دار الفرقان، الأردن، ط١، ٢٠٠٠م

التحرير والتنوير «تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفىٰ : ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ

تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ،الزمخشري؛ محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم، دار المعرفة، ط: ٣،١٤٣٠ – ٢٠٠٩

درة التنزيل وغرة التأويل، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠ هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفىٰ آيدين، جامعة أم القرىٰ، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصىٰ بها (٣٠) معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م

دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر ، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٥ هـ

شرح التلويح علىٰ التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، سعد الدين التفتازاني، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٦م.

لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (ت ٧٤١هـ)، تصحيح: محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٥ هـ.

مشكل إعراب القرآن، أ. د. محيد الخراط، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

مصاعد النظر للإشراف علىٰ مقاصد السور، إبراهيم بن عمر البقاعي الشافعي برهان الدين أبو الحسن، تح: عبد السميع محمد أحمد حسنين، ط: مكتبة المعارف، ط: ١، ١٤٠٨ – ١٩٨٧.

مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَىٰ مَقَاصِدِ السُّوَرِ، ويُسَمَّىٰ: "المَقْصِدُ الأَسْمَىٰ فِي مُطَابَقَةِ اسْمِ كُلِّ سُورَةٍ لِلمُسَمَّىٰ"، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، دار النشر: مكتبة المعارف – الرياض، الطبعة: الأولىٰ ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م

معاني القرآن، أبو زكريا يحيىٰ بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (ت ٢٠٧هـ) تحقيق: أحمد يوسف نجاتي وآخران، الدار المصرية للتأليف، الطبعة: الأولىٰ.

معجم مقاييس اللغة، ، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفىٰ: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، ، دار الفكر، ، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

مفاتيح الغيب=التفسير الكبير=تفسير الرازي، الفخر الرازي؛ محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي، ط: دار الفكر، ١٤٠١ – ١٩٨١ .

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ) ، دار الكتاب الإسلامي، ط:١، ١٤٠٤ هـ.

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة
الملخص باللغة العربية	٣
الملخص باللغة الإنجليزية	٤
مقدمة	٦
حروف المباني وأثرها في بلاغة المعنىٰ القرآني	٨
عموم جمال الدلالة	١٠
دلالة حذف التاء وذكرها في كلمة واحدة في سياقات متباعدة	١٣
الفرق بين دلالة الفعل (ولا تفرقوا) والفعل(ولا تتفرقوا)	١٧
جمال الدلالة في حذف نون الجمع وذكرها علىٰ التوازي	٢٠
نظرة وتأمل	٢٣
دلالة الحذف والذكر في الفرق بين قول الحواريين والوحي إليهم	٢٤
نظرة وتأمل	٢٥
دلالة حذف الحرف وذكره في خطاب واحد ومقام مختلف	٢٦
دلالة حذف النون في مقام القطع والتضعيف	٣٠
دلالة حذف الحرف في إزالة الشك وإثبات الحق	٣٣
اعتراض وتأمل	٣٥
جمال الدلالة بذكر الهمزة وحذفها بين السياق	٣٩
نظرات توضيحية	٤٢
جمال الدلالة في حذف همزة الاستفهام وبقاء معناها	٤٤
جمال دلالة الاستفهام المضمر في سياق التشبيه المنفي	٤٦
وقفة تأمل	٤٧
جمال دلالة حذف الهمزة في مقام الغرور	٤٩

المحتوى	الصفحة
جمال دلالة حذف الهمزة في مقام الخصوص وإرادة العموم	٥٢
جمال دلالة حذف همزة الاستفهام في مقام التبكيت	٥٥
دلالة حذف همزة الاستفهام علىٰ نفي البقاء	٥٨
دلالة حذف همزة الاستفهام في مقام الاستعظام	٦٠
	٦٢
ثبت بأهم المصادر والمراجع	٦٣
فهرس المحتويات	٦٥